ليلى العثمان
وسميّة تخرج من البحر
رواية
دار الآداب

وسميّة تخرج من البحر

ليلى العثمان

وسميّة تخرج من البحر

رواية

دار الآداب ـ بيروت

وسميّة تخرج من البحر

ليلى العثمان/ روائيّة كويتيّة

الطبعة الأولى لدى دار الآداب عام 2012
ISBN 978-9953-89-224-5

حقوق الطبع محفوظة

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطّي مسبق من الناشر.

دار الآداب للنشر والتوزيع
ساقية الجنزير ـ بناية بيهم
ص.ب. 4123 ـ 11
بيروت ـ لبنان
هاتف: 861633 (01) ـ 861632 (03)
فاكس: 009611861633
e-mail: d_aladab@cyberia.net.lb
rana.adab@hotmail.com
Website: www.adabmag.com

هذه الرواية:

* اختيرت ضمن أفضل مائة رواية عربيّة في القرن العشرين.

* تحوّلت إلى سهرة تلفزيونيّة وشاركت في (مهرجان الإذاعة والتلفزيون) في القاهرة عام ١٩٩٦ ونالت جائزة.

* تحوّلت إلى مسرحيّة ضمن مسابقة (مهرجان أيّام مسرح الشباب) عام ٢٠٠٧ في الكويت.

* تُرجمت إلى اللغتين: الإيطاليّة والروسيّة.

* * *

ـ ١ ـ

تطلّع إلى السماء المُعتمة . .

القمر غائب . .

نجمة هناك تبرق كثغر امرأة في لحظة نشوتها .

غلالات رماديّة من الغيوم تتناثر متباعدة مثل عشّاق، مُتخاصمة كلّ تأبى الالتصاق بالأخرى .

النسمات الباردة تهبّ . .

بداية موسم الربيع بعد لفحات الحرّ وعواصف الغبار .

البحر بعظمته يمتدُّ أمامه، يتراقص موجُه، ويتطاير بعض زَبَدِهِ حين تثور موجة إثر اهتزازات النسمات بين حين وآخر .

وحده في (الطرّاد)[1] . .

تخنقه الوحشة وتلفّه الكآبة بدبقها .

---

(١) الطرّاد: اللنش .

تتمدّد الوحدة في داخله، ثم تتشعّب إلى الخارج لتتّسع. تصير كالهالة من حوله تحاصره كأذرع الساحرات.

حرّك ذراعيه في الفضاء بغية أن يكسر حدّة الهالة فتسقط في البحر، وتتوارى مع الموج، ويرتاح بعد انتهاء الحصار.

تلفّت يمنة ويسرة، عيناه تصافحان البحر، تستقرّان على (الكرب الأحمر)[1] الذي يدلّه على موقع الشبكة.

حدّث نفسه:

(هل سيأتي الخير هذه الليلة؟).

الأرصاد الجوّيّة أكّدت أن مدًّا بحريًّا سيكون في الساعة الثالثة صباحًا. هل تصدُقُ الأرصاد أم تفشل كما في كثير من الأحيان؟

هل ينتظر وهو الذي لم يعتد الانتظار؟

فهو غالبًا ما يترك الشبكة بعد أن يلقيها بعيدًا في الماء. ثم يأتي في الصباح مع مجموعة من أصحابه لتسحب سواعدهم السمراء الشبكة الملأى بالخير.

صورة الأصحاب تموج أمامه، وجوههم المبتسمة دائمًا رغم عذابات الأيّام ومواجع الليالي، ينسون كلّ هذا ما إن يحلّقون في الديوانيّة وتفور الروح بتذكاراتها. تتفتّح الأذهان، يتناقلون الأخبار، يتسامرون، يلعبون (الدامة) ويتنافسون بإلقاء النكت العارية، يرفّهون بها عن أنفسهم، ويثيرون في دواخلهم رغبات

(١) الكرب: كرات إسفنجيّة حمراء تدلّ على موقع الشبكة.

ملوّنة يغادر على أثرها أحدهم فيتغامزون عليه، متصوّرين أنّه قد أُثير إلى الحدّ الذي احتاج به إلى زوجته أو. . . من يدري!

أخذته التذكارات، والكآبة اللّزجة لا تفارقه.

تنبّه لنفسه:

(لو استسلمتُ لهذه الكآبة فلن أفلح).

انتصب واقفًا. . .

تثاءب جسده بحركات رياضيّة، بينما الموج يعابث الطرّاد فيتراقص فوق صفحة الماء.

يحسّ بنفسه يتمايل، يُداخله السرور وكأنّ أصابع ناعمة تدسّ أطرافها في جسده وتدغدغه، وحين أحسّ بالشبع من تلك الدغدغة عاد ليجلس ويفكّر كيف يقطع الوقت.

وحده. . .

والليل يشهد مرارة قلقه. .

سرح يفكّر بطريقة يقطع بها الوقت:

(لم لا أغنّي؟).

مضى زمن لم تترنّم فيه حنجرتي.

في الديوانيّة يحبّون صوتي. قال لي (حمد) ذات مرّة:

ـ صوتك يشبه صوت عوض الدوخي.

استفزّني. .

كيف يُشبّه صوتي بذلك الصوت الرخيم الرائع؟

لكنّ خالد آزره وأكّد:

ـ والله إنّ نبرات صوتك كنبرات صوت عوض.

ثم وكأنّه يشجّعني بذلك المديح:

ـ غنِّ يا عبد الله، نحبّ أن نسمع صوتك.

هززتُ يدي رافضًا لكنّهم أصرّوا.. فسحبتُ نهدة طويلة وقلت لهم:

ـ لقد عافت نفسي الغناء منذ أن مات عوض.

ـ كنت تعشق صوته؟

ـ نعم.. وكنت دائمًا أحاول تقليد تلك النبرات التي تتتابع برقّة من حنجرته الدافئة.

كرّر حمد طلبه:

ـ غنِّ يا عبد الله.

تأفّفتُ وقلت:

ـ أشعر بالحزن حين أغنّي له بعد أن مات. أتصوّر أنّه سيأتيني في أحلامي ويعاتبني.

قال خالد:

ـ هل اسْتمعَ إلى صوتك؟

ـ نعم.. عزمني إلى بيته صديق وعرّفه بي وقال له إنّ صوتي

يشبه صوته. فنظر إليّ عوض.. ابتسم بحنان، لم يقل كلمة، احتضن عوده وبدأت أصابعه تعزف لحن أغنيته (صوت السهارى) التي أحبّها. وأمام هذا العرض المُغري منه ترنّمتُ بالأغنية.

ـ هل أعجبه صوتك؟

سأل سعيد وهو شغوف أن يعرف فأرضيتُ شغفه:

ـ أعجبه.. وأشاد بأدائي وقد فرحتُ كثيرًا.

اتّحدت الأصوات جميعها تطالبه:

ـ غنِّ يا عبد الله.

يومها ارتجف صوتي وانحدرت دموعي. كان شيء عميق يشقّ صدري كلّما حاولت.

صمتَ رفاقي.. لم يكرّروا الطلب.. ورحموني.

* * *

هذه الليلة تلحّ عليّ رغبة الغناء فلا أتردّد، أطلق صوتي مُتمنّيًا أن تسمعه الأسماك وتأتي، يشدّها الشوق إلى تلك الألحان البعيدة التي سكنت قلوب الأجداد، وقلوبنا، وقلب البحر الذي ما تزال موشومة في قاعه تتردّد بهمس عرائسه، وتتمنّى لو تعود سنوات الغوص حين كانت الحناجر تصدح (باليامال والهولو)[1] ولا تتعب.

هذه الليلة.. لو سمعتني الأسماك ستفرح، ستأتي، تتراقص

(١) أغانٍ ونغمات خاصّة بالفنّ البحري.

حولي وتؤنس وحدتي، ستكسر حدّة الكآبة التي أحسّها، ستصير بروقًا تهزّني فتنسكب من داخلي كلّ الأحزان، وتحتفل بي وكأنّها في ليلة عيد.

آه يا وجعي.. لو أصبّك الآن أغنية طال رقادها.

آه يا حزني.. أريد أن أمزّق أكفانكَ التي تلفّني، أريد أن تُحيي جثث فرحي التي انطفأت.

آه أيّتها الأغاني المخنوقة داخل حنجرتي.. كم أتمنّى أن تنطلقي وتعصفي بالبحر فتخرج منه حبيبتي.

* * *

عصر ذاكرته..

جالت به تسافر بين أبيات القصائد وكلمات الأغاني. ارتفع صوته لكنّه بدا واهنًا فشعر بالحسرة وسكت. ثم عاد ثانية يتحدّى ضعفه وأطلق الآه.

تحرّك الموج، أحسّه يضحك وكركرته تأتي من القاع وتنفرش حول الطرّاد، تستعجله، تستحثّه، والزبدُ منثور على رأس الموج مثل إكليل عرائس سابحة في موج العسل، أو مثل أجنحة حمام بيضاء ترفرف وتواصل السهر. هو أيضًا يعشق السهر، وحمامات العشق ما تزال تتراقص في فؤاده.

ينطلق بالأغنية:

(يا ساهر الليل مثلي ما تنام.

ذكّرتني بالأحبّة يا حمام).

خرجت الأغنية من أعماقه. . من كمين الروح التي اعتقلها الزمن واغتال أفراحها وهو ما يزال دؤوبًا يسعى إلى البحر، يعانقه كلّ مرّة وكأنّه يراه للمرّة الأولى، هذا العشق المتوقّد كالجمر لن يمحوه الضجر ولا التردّد.

توقّف حين لم تخرج سمكة واحدة لترقص. ظنّ أنّ صوته لم يصل، سكت، انتظر لحظة، لكنّه تنبّه أنّ صمته يعني يأسه، واليأس شرّ إذا تملّك الإنسان. نفضه عنه وتابع أغنيته. ترجرجت في صدره، وصداها الحنون يتحرّك راقصًا من حوله، يُمزّق الهالة المحيطة به وينبعث موسيقى لكلّ موجة فترقص رقصًا أفعوانيًّا منسجمًا.

هي ذي أغنيته تسبح، تدوّي، تلعب دورها في إيقاظ الأسماك النائمة وتلاعب كرب الشبكة الراسية بخفّة، وطير الحبّ يهتف بجناحيه داخل صدرره.

من يلومه؟

من ذا يلوم عاشقًا لم يسفر الصبح عن وجه عشقه ولم تشهد الشمس ميلاده؟

انطلق صوته يكمل الأغنية:

(يا لايمي في الهوى. . . زاد العتاب

ما تدري إنّ الهوى ليله عذاب

وأشواق فيها انطوى عمر الشباب

وأسرار قلبي).

يزداد اهتزاز الكرب، يحسّ سباق الأسماك وهي تتدافع أفواجًا إلى الشبكة كأنّها تدخل إلى قلبه، تشاركه وجده وعذاباته وتسمع شكواه وتواسيه.

آآآه.. غدًا سيعود إلى الشبكة، سيزغرد قلبه، سيجمع الخير، سيشمّ في فم كلّ سمكة رائحة يُحبّها. وقد تحمل إليه السمكات شيئًا من القاع، خاتمها، عقدها، أو نتفًا من الألعاب التي احتفظتْ بها.

ولكن!!

ماذا لو وجد الشبكة فارغة إلّا من بعض الحجارة والأعشاب؟ سيُحسّ بأنّ السمكات قد خاصمته وهجرته، عندها سترتدّ أفراحه داخل صدره، وتنهار أحلامه.

ارتعش... رفض الفكرة وقال في سرّه:

(لا.. لن تنهار أبدًا.. للأحلام أجنحة تظلّ تحلّق حتى لو أصابتها السهام).

هو يكره اليأس، ويعرف أنّ هذا البحر الكبير رغم جبروته حنون معطاء.

تذكّر طفولته.. حُبّه.. أحلامه.. لم يفقد الأمل يومًا، لم تردعه صرخة (فهد) الذي كسر ساقه، ولم تؤثّر به فكرة أنّه دون المستوى المطلوب. ظلّ رغم كلّ الظروف طفلاً حالمًا، ورغم كلّ القسوة والحرمان ظلّ الأمل عالقًا بقلبه حتى وهو يعيش واقعه الحاضر.

آه.. الواقع..

زوجته..

الشرسة الطبع، ومطارق صراخها التي تُعيده إلى الزمن الماضي فيستعيد ذلك الصوت الحبيب، وذلك الحبّ اللابد بدفء في وجدانه. هي لا تدري أنّها مهما صرخت فإنّه لن يتراجع، وسيبقى على حُبّه للبحر، يهرع إليه، يرمي شكواه بين يديه وينسى في حضرته صوتها وإلحاحها. ينساه ويتمنّى لو يفارقه إلى الأبد.

تذكّرها..

نظر إلى ساعته، أدرك أنّ الوقت مضى، وعليه أن يسرع إلى البيت، سيجدها بانتظاره، ستنفلت عليه كالشرارة مثل كلّ ليلة.

عليه إذن أن يعاند حبيبه البحر ويبتلع أغنيته، يترك شبكته وحيدة وغدًا يعود إليها، وقد يرى في عيون السمكات نظرات يعرفها، وفي أجسادها لونًا يعرفه، وفي أفواهها رائحة يعشقها، سيعانق كلّ السمكات وكأنّه يعانق الحبيبة.

* * *

كلّ ليلة يعود فيها من البحر ويقترب من البيت يبدأ يتعوّذ من الشيطان، وحين يدسّ المفتاح الرطب في ثقب الباب ويدلف بهدوء، يتمنّى لو يجدها نائمة، لكنّه يراها كالشيطان الذي تعوّذ منه.

كانت متكوّمة على أريكة تنهرس تحت ثقل جسدها. عيناها متورّمتان من السهر، تقاوم النعاس لا لأنّها بانتظار عودته شوقًا

إليه، فهي ليست تلك المرأة السحابة التي تنتظر أن يأتي حبيبها ظامئًا لتصبَّ عليه الوجد وتبلّل عطشه، ولا لأنّها كقلب الأمّ الذي يقلق حتى يعود صغيرها وتطمئنّ عليه، هي فقط تنتظره لتنهال عليه بالصراخ والتقريع والأوامر.

كاد أن يرتمي بجسده المتعب على الأريكة المقابلة لكنّها زعقت:

ـ لا تجلس.. اذهب إلى الحمام وانزع عنك حتى جلدك لو استطعت.

حاول أن يحشر هدوءًا صافيًا في صوته، محاولاً أن يكسب عطفها:

ـ أتمنّى مرّة واحدة لو تستقبلينني بابتسامة، مرّة لو تقولين حمدًا لله على سلامتك، مرّة لو...

قاطعته بحدّة وقد اتّسعت حدقتا عينيها:

ـ ليش؟ هل كنت في سفر؟

(غبيّة أو تتغابى! كيف لا تفهم أنّ البحر سفر، رحلة الصيد سفر، تنسى أو تتناسى أنّ البحر رغم جماله وعطائه وحنانه هو غدّار، مخادع، شرس كشراستها، تنسى كم التهم بحّارة وغيّب (نواخذة) وحطّم سُفنًا وضيّع بضائع ونكب تجّارًا!).

اقترب منها ليهدّئها لكنّها ثارت في وجهه:

ـ ابتعد.. وإيّاك أن تجلس.

اجترّ خيبته..

(لا فائدة ترجى منها).

ابتعد، وحين وصل إلى باب الحمّام أحسّ بالندم.

(لماذا يخاف منها وينصاع لأوامرها؟

لماذا لا يلتفت ويصرخ في وجهها العريض، ثم يصفعه صفعة تشلُّ لسانها وتخرسها إلى الأبد؟

لو أنّه مرّة واحدة يثور ويفعلها، بالتأكيد سيكسب المعركة).

شيطان نفسه يغريه بأن يهمَّ ويفعل، لكنّها بصرختها الثانية:

ـ ماذا تنتظر؟ رُح استحمّ، وخلّصني من رائحتك.

اندحر شيطانه، تعوّذ منه ومنها وواسى نفسه:

(لا يهمّني ما دمت أنتصر لعملي. أتحدّاها بعشقي للبحر رغم ضغوطها المستمرّة، فلتذهب إلى الجحيم).

* * *

نزع ملابسه، رائحة البحر تفوح منها، ودَّ لو يُلصقها بأنفه ويظلّ يتشمّم زفرها حتى الصباح.

ملأ البانيو بالماء الحارّ، غطس فيه، أسبل جفنيه، تصوّر أنّه غاطس في موجة حنونة تداعب جسده وتثير رغبته، كيف لهذه الرغبة أن تنطفئ وهي تعانده وترفض الاستسلام له؟

أمسك بالليفة الخشنة وغمرها بالصابون، وبدأ يدعك جسده

حتى أحسّ بأنّه يقشر جلده ويفتح كلّ مسامّاته، حين تأكّد أنّه صار نظيفًا غادر الماء وخرج وهو يلتفّ بالمنشفة بعد أن صبّ العطر على كلّ مساحات جسده.

اقترب من الفراش الذي سبقته إليه، اندسّ فيه، وكالعادة أحسّه باردًا، ابتلع برده، اقترب منها، هاجت وكأنّها بانتظار اللحظة:

ـ ماذا تريد؟ تأتي متأخّرًا وتريد أن تزعجني.

افتعل ضحكة خفيفة:

ـ أريد أن تهدأي لتستأنسي.

سخرت وهي تبتعد:

ـ أنت ما وراك وناسة، وناستك بس للبحر.

توسّل إليها:

ـ يا بنت الحلال.. خلّينا ننسى البحر واقتربي منّي.

هبّت في وجهه:

ـ بنت الحلال الصابرة عليك لا تريد وناستك.

ـ من يسمعك يتصوّر أنّني أظلمك.

استقامت في جلستها والتفتت إليه:

ـ وهل تتصوّر غير هذا؟ نهار وليل في البحر، صيد، وأصحاب، وبلاوي الله أعلم فيها، وبعد ريحة زفر.

حاول تهدئتها:

ـ يا بنت الحلال، البحر مصدر رزقنا.

صوتها يذكّره:

ـ ما لها الوظيفة؟ كان المعاش كافينا، تركتها لتتفرّغ لهذا الملعون.

ـ البحر! تقولين عنه ملعون وأنت تعرفين أنّ ربحه أكثر من راتب الوظيفة؟ احمدي ربّك إحنا بخير.

زمّت شفتيها وزفرت:

ـ خير لك أنت.. البحر صار زوجاتكم، تتركون بيوتكم وتتمتّعون بقعداتكم فيه، ومن يدري عن أسراركم.

ـ أنا وغيري ما نروح للمتعة وأنت تعرفين تعب البحر والصيد.

ـ لعنة الله على البحر.

نظر إلى وجهها الكشور، بماذا يردّ عليها وهي تلعن حبيبه البحر؟ سيغفر لها فهو يحتاجها الليلة.

يدنو... تبتعد.. يدنو... تزفر:

ـ أفّ. رائحتك زفره.

تشمّم نفسه وضحك:

ـ وين الزفر؟ لقد كشطت جلدي.

ـ ولو.. زفرك نابت من لحمك وعظمك لا تكشطه ألف صابونة.

عاد يحايلها وقد استبدّت به رغبته ويريد أن يرتاح حتى لو كان لا يستمتع بجسدها.

ـ يا بنت الحلال.

وبنت الحلال ترفضه. فيشعر بالحقد عليها، ألا يكفي أنّه صابر عليها ولم يتزوّج بأخرى تنجب له الأولاد؟ احتمل عقرها وشراستها وهي لا تحتمله ولا تحتمل حبّه للبحر.

استلقى على ظهره وتشمّم نفسه لعلّ شيئًا من رائحة البحر تحدّى الليفة والصابونة وظلّ صامدًا. آآه على البحر.. هذا الساحر الذي يعشقه وتذوب عيناه وهو يتأمّل زرقته، يمشي إليه كالمُنوّم، وحين يتسرّب الزفر إلى أنفه ورئتيه يعود إليه النشاط، وتدبُّ فيه الحياة. وحين يلقي بجسده المتعب في أحضان الموج ويحيط به الزبَد يشعر وكأنّ عرائس نشوى تغازل كيانه، وحين يرتمي على رمله يحسّه مثل وسادة تغنيه عن أنعم الوسائد. إنّه يدغدغه ويمسّده، وقواقعه تحكي له عن مشروعها لليوم التالي قبل أن تسحبها الموجة إلى قلب البحر.

آه لو تعلم كم يعشق البحر!!

حاول ثانية أن يتودّد إليها، وفي قلبه مرارة يودّ أن يطردها حتى لو كان الثمن التصاقه بجسد زوجة تكره رائحته، وتكره بحره الذي يحبّه.

لكنّها عادت ترفضه وتلقي عليه بسؤال مفاجئ:

ـ لماذا لا تشتري السمك من السوق وتريح نفسك؟

قال ليهوّن عليها:

ـ ومن قال لك إنّني تعبان؟

تثور:

ـ وهل يجب أن يقول ذلك أحد؟ هل تتصوّر أنّك ما زلت شابًّا؟ لماذا تنسى أنّك كبرت وشبت؟

انزعج.. إنّها تذكّره بالسنوات التي داست بأخفافها على جسده وشعره، يعرف أنّه الآن تعدّى الخمسين، لكنّه يشعر بنفسه شابًّا نشطًا قادرًا على أن يصارع البحر ويسحب الشباك. قادرًا أن يسهر، أن يتعب، إنّ هذا يطيل بعمره ويجدّد شبابه، ويثريه بالصبر وبالأمل. إنّها تعايره بكبر سنّه رغم أنّه يعاشرها بفحولة ترضيها. كلّ ما تطمح إليه من هذه المعايرة أن يهجر حبيبه البحر.

عافت نفسه الفراش الذي اشتهى أن يحضن جسده بعد دفء الحمّام، ألقى باللحاف وهمَّ أن يتحرّك فنادته:

ـ على وين إنشالله؟

زعق بها:

ـ إلى الشيطان.

ارتفع صوتها:

ـ بل قل إلى البحر.

انسحب مسرعًا بينما صوتها يلاحقه، وكلماتها كالرمح تشقّ فؤاده:

ـ أنا لا أدري ما الذي تحبّه في هذا البحر!

آآآه... لو تدري!

هرول إلى الباب وصفقه وراءه متمنّيًا لو يصفق فمها.

الغبيّة.. هل تستطيع أن تتحسّس الجرح النائم باسترخاء ولذّة في صدره؟

كيف لها أن تفهم أنّها بسؤالها المتكرّر إنّما تفجّر سكون العاصفة في أوصاله، فتهزّ شجرة الماضي البعيد لتنهال عليه الذكريات وتوقظ كلّ شيء.

آآه.. لو تعلم أنّها بسؤالها تُحيي في قلبه وجه الحبيبة فتعود عيناها مثل لؤلؤتين صافيتين، وثمرتين ناضجتين تهتزّان أمامه فيشرق كلّ شيء فيها حتى.... اسمها.

* * *

ـ ٢ ـ

وَسْمِيّة . . .

كان اسمها وسميّة.

يا ذلك الوجه الزاهي بسمرته، يا نجمة الليالي المتلألئة بالنور، وأغاني (المالد)، وأهازيج الأطفال و(القرقيعان)[١]. يا غزالة تسبح في ماء المطر المتجمّعة في الشوارع الضيّقة.

يا وسميّة . . .

يا حبّي الأوّل الذي سكن القلب، لكنّه لم يعش طويلاً في حيّنا القديم.

أين هي الآن خارطة الحيّ والمدينة القديمة؟ كلّ شيء نسفوه باسم الحضارة. واحتلّت العمارات الشاهقة أماكن الطفولة ودكّت أفراحها وحكاياتها التي سُطِرت على الجدران الطينيّة. حكايات

(١) في منتصف رمضان يخرج الأطفال لينشدوا عند البيوت، فيعطونهم المكسّرات والحلوى.

مكتوبة بدم القلب لا يعرف مكانها إلّا من كتبها ومن كُتبتْ له.

كلّ شيء أزالوه، الأحواش الواسعة التي ترتمي فيها جدائل الشمس كلّ صباح فتوقظ الأجفان النائمة بأمان، حتى أجفان الأبقار والأغنام الهاجعة تحت عرائشها، تبدأ تتنفّس ويعلو ثغاؤها مستجيرة من جوع الليل ومن الخير الذي أثقل أثداءها.

أين زمنها؟ أين خيرها؟ لقد حرموها زمنها، وحرمونا تلك النهارات الساطعة التي يتسارع فيها الرجال مشيًا على الأقدام إلى أعمالهم، وتبدأ الأمّهات أعمالهنّ في المطابخ وتحت عريش البهائم لتحلبها، وعند مواقد الجمر لتخبز خبزها، بينما تستند الجدّات إلى المساند يُسبّحن الله ويُداعبن الأطفال الرُضّع دون ملل حتى تبتلّ أثوابهنّ ببول أو قيء. عندها يصرخن مستنجدات بالأمّهات.

الحياة كانت أنيسة وحلوة.. نخرج حفاة إلى الشارع لنقطعه متسابقين إلى نهايته لنصافح وجه (أمّ علي) بائعة الباجلاء المتربّعة على الأرض الرطبة. نفرك أعيننا، نزيل قذاها لنتأكّد من عدد المغارف التي تصبّها في قدورنا ونُسقطُ لها (الآنتين)[1] في وعائها المعدني فترنّ كزغرودة.

نحمل قدر الباجلاء الحارّ الذي يتصاعد بُخاره إلى أنوفنا. أسرابًا.. أسرابًا نعود إلى البيوت، بعضنا يحمل خبز التنّور ذو الفقّاعات المنتفخة التي تشوّق بعضنا فنخطفها من على رؤوس

(١) الآنتين: جزء من الروبيّة. العملة قبل الدينار وهي في الأصل عملة الهند.

أصحابها رغيفًا بعد رغيف ولا يهمّ بعد ذلك لو ضربونا أو دعكوا أفواهنا بالفلفل الأحمر، أو قرصوا ما بين سيقاننا!

حياة هادئة وادعة، غنيّة بالحبّ، بالرحمة، وبالتواصل بين الناس، لكنّهم سحقوها، هدموا البيوت البسيطة فصارت مدينتنا غريبة علينا. لقد ضاع حيّنا.. وبيتنا.

أين هو الآن؟

وأين بيت وسميّة؟ لم يبق منه سوى تلك الشجرة التي كانت تظلّل حوشها، وكأنّهم أرادوا أن يتركوا لي شيئًا حبيبًا إلى نفسي.

أتعمّد المرور من هناك كلّما ذهبت إلى السوق. وأستظلّ تحت الشجرة الوحيدة، وحنين أخّاذ يشدّني إلى سنوات الطفولة والصبا بكلّ حلاوتها وإلى...

وجه وسميّة.

* * *

كان البيت كبيرًا تتوسّط حوشه الترابيّ بركة ماء يرتاح الدلو على حافّتها، وكم سقط في البركة فتنافستُ مع وسميّة لنخرجه (بالملمص)، ومن ينتصر على الآخر يأخذ حبّة الحلوى من أمّها.

حول البركة كانت تتجمّع قطرات الماء المتساقطة من الدلو، فنزرع حبوب الشعير، ونتراهن من سيكبر زرعه قبل الآخر. كان شعيري يطول بسرعة فتغتاظ وسميّة لكنّها تبرّر لتقنعني:

ـ شعيرك يطول بسرعة لأنّك أطول منّي.

أتغابى:

ـ هل صحيح أنا أطول منكِ؟

تتحدّاني..

تقترب منّي..

تُلصق كتفها بكتفي..

أحسّ بالفرح..

تلتصق أكثر وتؤكّد:

ـ شوف... شوف... أنت أطول.

كنت في كلّ مرّة أجبرها أن تتحدّاني لتلتصق بي. كان هذا الالتصاق يثير بجسدي رجفات لذيذة.

من الحوش الكبير الذي تلتفّ من حوله اللواوين تتفرّع أحواش أخرى، حوش المطبخ وفيه مطبخان، واحد كبير لأيّام الولائم والأعياد، وآخر صغير تدخله أمّ وسميّة كلّ يوم لتطبخ، فتفوح روائح (المكبوس والمطبق)[1].

كنت أذهب متأخّرًا بالأغراض التي تعطيها لي أمّي لأوصلها لأمّ وسميّة حتى ألحق موعد الغداء، وكانت أمّ وسميّة تسكب لي من الوجبة وهي وتقول:

ـ خذ يا عبد الله.. كُل مع أمّك بألف عافية.

أفرح...

أحضن قدر الأكل إلى صدري رغم حرارته. أسرع إلى البيت لآكل ممّا تأكله وسميّة، ولا أنسى قبل أن أخرج أن أملأ الدّلاء وطاسة الرمل التي تفرك به أمّ وسميّة القدور. أنقّيه من الحصى حتى لا تخدش يدها، وأضع الأشياء عند حوض البالوعة التي في الزاوية. تشكرني وتدعو لي أن أكبر وأجد بنت الحلال التي تخدمني. أنظر إلى وسميّة وفي عينيّ الأمنية التي تتلاقى بأمنيتها، و... أخرج سعيدًا.

(١) أكلات شعبيّة كويتيّة من السمك أو اللحم.

من حوش المطبخ إلى حوش البهائم حيث الحظيرة الكبيرة المليئة بأنواع الطيور، الوزّ، البطّ بألوانه الرماديّة والبيضاء، ودجاج كثير ودِيَكة تتصارع أحيانًا ثم تهدأ، وببغاوات كبيرة الحجم تصرخ بصوتها مُقلّدة الكلام، تنده باسمي واسم وسميّة، وكم عضّت أطراف أصابعنا ونحن نطعمها (السبال)[1]. وهناك طيور غريبة يأتي بها أبو وسميّة من الهند وإيران. الديك الرومي الذي تكرهه وسميّة ولا تقترب منه، وطاووس مغرور ينفش ريشه الجميل كلّما رآنا نرتاح تحت ظلّ الحظيرة وكأنّه يريد أن يؤنسنا ونحن في خلوتنا.

كنّا نتبارى في جمع البيض لأمّها التي تكافئني في كلّ مرّة:

ـ خذ يا عبد الله.. خلِّ أمّك تسلقه لك أو تقليه.

كنت أحبّ البيض... أركض به إلى البيت، وكم تعثّرتُ وتكسّر منّي وحملت بدلاً منه طعم دموعي.

ذات مرّة كانت وسميّة تقف عند الباب، ورأتني وأنا مُنكبٌّ على البيض المكسور ألعق صفاره المختلط بالتراب وبدموعي المالحة، اقتربتْ منّي ووبّختني بحنان لا أنساه:

ـ ليش يا عبد الله تأكل البيض الوسخ؟

خجلت منها.. رفعت رأسي وذقني ملوّث بالبقايا، رفعتْ طرف (بخنقها)[2] ومسحت وجهي وعادت بي إلى بيتهم. حكت لأمّها عمّا حدث فتبلّلتُ بعرق خجلي.

---

(١) الفول السوداني.

(٢) البخنق: نوع من غطاء الرأس تلبسه البنات الصغيرات قبل العباءة.

دنت أمّها منّي، مسحت على رأسي وعاتبتني برفق، ثم أعطتني سلّة مليئة بالبيض والزبد والحلوى.

يا لوسميّة...

ويا لأمّها الكريمة المعطاء...

حتى أبوها الذي يسافر باستمرار، كان حين يعود من سفره يسأل عن أمّي ويجلب لها الهدايا، أقمشة زاهية وخواتم. وكنت شغوفًا لرؤية هداياه لوسميّة من أساور وعقود تلبسها وتسألني:

ـ حلوة؟

أهمس:

ـ أنت حلوة.

تدرك لؤمي وتقول:

ـ أسألك عن هذه ـ وتشير إلى عقدها وأساورها.

أداعب عقدها وأساورها وأؤكّد لها:

ـ حلوة وايد.

تغيظني:

ـ لو كنت بنتًا للبست مثلها.

أثور:

ـ أنا ولد ولا أحبّ أن أصير بنتًا.

تسألني:

ـ ألا تحبّ البنات؟

يزغرد في قلبي سؤالها وأجيب:

ـ أكيد أحبّ البنات.

تكشّر وتصرخ:

ـ كلّ البنات؟

أدسّ نظرتي في عينيها السوداوين اللامعتين.. هل أقول لها أم أغيظها؟

كنّا بعد طفلين.. وسميّة تحبّني وتعلم أنّني أحبّها لكنّها تسأل وتلحّ:

ـ تحبّني؟

ـ ...

ترفع من نبرة صوتها:

ـ تحبّني؟ أو.. لا؟

أتصنّع أنّني أفكّر لأحرقصها قبل أن أجيبها:

ـ قليلاً.

تضربني على يدي:

ـ يا كذّاب أنت (تموت عليّ).

وأموت...

أموت.. ويدها الناعمة السمراء بخاتمها ذي الفصّ الأزرق تلامس يدي، ثم تشدّ على أصابعي وتضغط على أطرافها وصوتها ينساب بالتهديد:

ـ والله أكسر أصابعك إذا ما تحبّني.

تهديد له صفة خاصّة.. له لون ورائحة.. وجناحان يطيران ثم يستقرّان في عشّ قلبي.

* * *

في الناحية الغربيّة من حوش البهائم كثير من الأبواب الهنديّة المحفورة بأشكال دقيقة، ومزيّنة بالزجاج الزاهي الألوان. كان أبو وسميّة يحضرها من الهند، ويأتي بتحفٍ خشبيّة من الأفيال والقرود والأبوام الصغيرة، يخزّنها تحت العريش في صناديق من الخشب ويغطّيها حتى لا يصلها ماء المطر إلى حين أن يتمكّن من بيعها هي والأبواب إلى التجّار. وكانت تجارته رابحة.

في ذلك الحوش كنّا نتراكض ونلعب مع بعض الأصحاب لعبة (اللبيدة). أحيانًا كان يشاركنا أخوها فهد الذي كنت أشعر بأنّه لا يحبّني.

ذات مرّة لبدتُ أنا ووسميّة خلف أحد الأبواب حتى لا يعثر علينا الذي عليه الدور أن يبحث عنّا. التصقنا بعضنا ببعض التصاقًا شديدًا، لكنّ وجه فهد أطلّ علينا وانزعج حين رآنا متلاصقين. شدّ وسميّة من جديلتها وألقاها على الأرض وأخذ يضربها ويركلها، والأصحاب واقفون مذهولون لا يجرؤ أحدهم أن يقترب ويخلّصها. كانت وسميّة تصرخ فجاءت أمّها راكضة تستفسر فرأت

المشهد وصرخت بفهد وهي تبعده عنها:

ـ ليش تضربها يالملعون؟

قال مدافعًا عن نفسه ومتّهمًا أخته:

ـ كانت تلعب عروس و(مِعْرِسْ) مع هالكلب.

مُشيرًا إليّ.

لم تصدّقه.. خبطت على رأسه مدافعة عنّا:

ـ يا كذّاب.. وسميّة وعبد الله لا يعرفان هذه الأفعال.

صورة لن تغيب... زاغ نظري إلى السماء، نسيت وسميّة المُعفّرة ملابسها بالتراب ودموعها المنسابة نهرًا على وجنتيها و... حلمت!!

أحلامًا هفهافة، وريحًا ناعمة ترفعني إلى السماء وقلبي يطير... ويطير. هل حقًّا أصير معرسًا وتصير وسميّة العروس؟

* * *

بيني وبين وسميّة فوارق كبيرة..

هي ابنة الحسب والنسب..

وأنا ابن مريوم الدلّالة..

هي ابنة تاجر كبير يجول ويصول في بلدان الله الواسعة ويأتي بالغنائم، وأنا ابن رجل لا يذكره أحد. مات وتركني يتيمًا.

هي ابنة البيت الكبير ذي الأحواش المتعدّدة..

وأنا ابن مريوم التي تؤجّر غرفة كئيبة في حوش يضمّ خلائق متنوّعة من البشر، وتنحشر في فراش ضيّق تفسّخ قطنه واهترأت أطرافه.

هي ابنة أمّها ذات الأصل والفصل..

وأنا ابن مريوم التي تحمل بقشتها، وتدور على البيوت لتخدم ناسها أو تبيع بضاعتها.

كنت أرافقها، أحمل بقشة ثانية أو طاسات الزلّابيّة التي

تصنعها وتبيعها وقد لا يأكلها الناس لكنّهم يشترونها ليساعدوها على تحصيل الرزق.

أدخل كلّ البيوت.. أرى كلّ الأمّهات.. وكلّ البنات.. لكنّني كنت أحبّ بيت وسميّة، وأمّ وسميّة، وأحبّ وسميّة. وكثيرًا ما كنت أقضي النهار مع أمّي في بيتهم، أراها وهي تنهمك في الغسيل، تدعك الملابس فأحسّ عروق رقبتها تنتفخ ويتساقط عرقها ليختلط بالماء والصابون.

كنت أنا ووسميّة نجلس بقربها.. نرغي لها صابونة (الديك)، وحين تمتلئ كفّي بالفقاعات أنفخها على وجه وسميّة، فيدخل الرذاذ إلى عينيها الواسعتين الجميلتين. تدعكهما حتى تدمعا وتصرخ بي أمّي رغم أنّ وسميّة لم تعترض:

ـ يا (كلب).. حرقت عين البنت الله يعميك.

شهقت وسميّة شهقة خوف ودافعت عنّي:

ـ خالتي أمّ عبد الله.. لا تدعين عليه بالعمى، اسم الله عليه.

تعصر أمّي الثياب التي بين يديها وتقول:

ـ شلون ما أدعي عليه؟ يفعل هذا مع (عمّة من عمّاته)[1].

عمّة من عمّاتي!

لماذا؟

كيف تكون وسميّة عمّتي!

(١) العمّ والعمّة: أيّ السيّد والسيّدة ـ أي الأسياد.

أمّي دائمًا تكرّر هذا القول وأنا لا أفهم.

حتى أمّي تنادي أمّ وسميّة بـ (عمّتي)، وتأمرني أن أناديها بـ عمّتي.

صوت وسميّة وهو يدافع عنّي يزغزغني:

ـ أنا مو عمّته.. عبد الله أخوي.

أفرح...

أنتصر على أمّي.. أتمادى في مداعبة وسميّة، نتراكض، نتسابق، نخطف بعض الثمار من السدرة ذات الفروع المتدلّية، أنسى في تلك اللحظات أنّ وسميّة عمّة من عمّاتي، وأنّها ابنة أمّها وأبيها، وأنا ابن مريوم الدلّالة، أنسى كلّ شيء إلّا أنّنا طفلان متقاربان رغم كلّ الفوارق، وأنّنا قلبان يحلّقان ببراءة ومحبّة في سماء واسعة ملأى بالنجوم.

حين أعود إلى البيت أتذكّر ردع أمّي، أحزن، أحبس رأسي بين ركبتيّ، وأعاف الأكل فتدنو منّي:

ـ ما بك يا عبد الله؟

تنحدر دموعي:

ـ لقد (هاوشتيني)[1] أمام وسميّة.

تمسح على رأسي:

(١) هاوشتيني: أي وبّختني.

ـ يا (عبيد)[1] لا تزعل.. يكفيك أنّ وسميّة لا ترضى أن أهاوشك وتدافع عنك.

ـ قلت بأنّها عمّة من عمّاتي، وهذا الكلام لا أحبّه.

تسحبني أمّي، تشدّني إلى صدرها وتواسيني:

ـ يا عبيد هذه سُنّة الحياة، جعلها الله عمًّا وخادمًا، غنيًّا وفقيرًا، حاكمًا ومحكومًا، الدنيا مختلفة، ووسميّة فعلاً عمّة من عمّاتك.

ـ هل أنت خادمة عندهم؟

امتقع وجه أمّي وحاولت أن يبدو صوتها عاديًّا:

ـ لأ.. لكنّني أعاونها وأعاون غيرها.

أتوسّل إليها:

ـ لا تشتغلي عند الناس، أنت تتعبين.

ـ أتعب وأترزّق الله وآخذ حقّ تعبي، وإلّا من أين نعيش؟

ـ أمّ وسميّة تعطينا كلّ شيء.

ـ لا يا عبد الله، عيب أن نعتمد على الناس، لازم نتعب وناكل من عرقنا.

أترجّاها بصوتي الدامع:

ـ طيّب.. اشتغلي عند أمّ وسميّة وبس.

---

(١) عبيد: تصغير لاسم عبد الله.

تضحك وتدلّلني:

ـ يا وليدي أريد أن أراك سعيدًا، تلبس الدشاديش الزينة، وتأكل الدسم، وهذا لا يصير إلّا إذا اشتغلت في بيوت كثيرة.

كنت أحبّ كلام أمّي، وكنت أرجوها دائمًا:

ـ خلّيني أشتغل وأساعدك.

ـ أنت فعلاً تساعدني، تحمل لي الأغراض وتوصلها، لكنّك صغير على الشغل.

أعدها:

ـ بس أكبر راح أشتغل وأريحك، وأصير غنيًّا وأحضر لك كلّ ما تشتهين.

تقرص خدّي برفق وتداعبني:

ـ وماذا ستحضر لوسميّة؟

يصيبني لسع ساخن، أخجل، أنكّس رأسي وأبتسم، وأمّي تصرّ عليّ بسؤالها:

ـ تحبّها يا عبد الله؟

أهزّ رأسي بالإيجاب، والخجل يغرقني.

تتنهّد أمّي:

ـ إيه يا عبد الله.. وسميّة (حليوة) وأمّها بنت حلال، طيّبة و(كافّةٍ عافّةٍ).

تصمت لحظة ثم تحذّرني:

ـ انتبه يا عبد الله.. إيّاك أن تزعلها أو تزعل أمّها منك.

أردّ عن نفسي تهمة لم أرتكبها:

ـ أنا ما أقدر أزعلها لأنّها تحبّني وتدافع عنّي.

تحضن رأسي:

ـ أعرف يا وليدي، لكن هذول الناس، رغم طيبتهم وكرمهم، لا يحبّون أن يتطاول أولاد الفقراء على أولادهم.

فقراء... فقراء...

أنا إذن ابن الفقراء.

ـ لماذا نحن فقراء يا أمّي؟

يفاجئها السؤال لكنّها تتماسك:

ـ ربّك يعلم يا وليدي.

وأفاجئها بسؤال آخر:

ـ وليش الأغنياء يكرهون أولاد الفقراء؟

ـ من قال إنّهم يكرهونهم؟ الناس كلّها وليس الأغنياء فقط يكرهون الأولاد الشياطين غير المؤدّبين.

ـ وهل بنات الأغنياء لا يحبّون أولاد الفقراء؟

تفهم أمّي ما يدور بخلدي وتطمئنني:

ـ الحبّ لا يعرف غنيًّا ولا فقيرًا، كلّ الناس تحبّ ولكن!

ـ ماذا؟

بلهفة سألتها فتلعثمت:

ـ يعني... أقول...

تجرّأت وسألتها بإلحاح ووددت أن أعرف:

ـ يعني الأغنياء لا يزوّجون بناتهم من أولاد الفقراء؟

حزن وجه أمّي، مسحت على مفرق شعرها وشدّت جديلتها الرفيعة:

ـ إيه.. الغني للغنيّة.. والفقيرة للفقير. هذا حال الدنيا.

وأنا فقير..

وأحبّ وسميّة.. ولا أريد أن يحرمني منها أحد.

وربّي يعلم أنّني أحلم أحلامًا أكبر منّي، أحلم أن أصير غنيًّا لأتزوّجها.

ذات يوم عبّرت لأمّي عن أمنيتي:

ـ إذا صرت غنيًّا، هل يزوّجونني وسميّة؟

سحبتْ أمّي آهة طويلة وصدمتني:

ـ لا... لن يرضوا.

ـ قلتِ إنّ الأغنياء يريدون غنيًّا!

نطقت أمّي دون رحمة:

ـ ويريدون أصلاً وفصلاً، حسبًا ونسبًا، وأنت؟ ابن مريوم الدلّالة مهما صرتَ واستويتَ واغتنيتْ.

حنقت على أمّي، لماذا صارت دلّالة؟ هل صارت سُبّة لي؟

أحسست بأنّني أقسو على أمّي.

ما ذنبها؟ لقد وُلِدَت فقيرة.. وهذا نصيبها ونصيبي.

كم هي طيّبة.. حنونة.. مكافحة.. وأنا أحبّها وأفتخر بها، وإن كانت وسميّة تحبّني حقًّا فعليها أن تنسى أنّني ابن مريوم الدلّالة.

* * *

كانت تلك الأفكار تؤرّقني، وكنت ما أزال صغيرًا أتفتّح على الحياة، لكنّ الأشياء التي كانت أكبر من فهمي تفجعني، وتقلقني، والفرق بيني وبين وسميّة كبير، ومهما صرت فلن تكون لي ولن تتحقّق تهمة أخيها فهد ونصير عروسًا وعريسًا.

منذ ذلك اليوم لم أعد أفكّر في المستقبل، كنت أخضع لواقع رغم بساطته وتآلف ناسه وتكافلهم إلّا أنّه مليء بالقيود والفوارق التي لم أعد أرغب في اجترارها، ويكفيني أنّني أعيش اللحظات الحلوة مع وسميّة، نلعب، نتحدّث، نتبادل الأشياء الصغيرة، أنا أذهب إلى البحر وهي تنتظرني عند باب بيتهم لتأخذ منّي القواقع. أعود بعد السباحة وأنا أحمل رملي، ورائحتي. ما إن تلمحني حتى تركض نحوي، تلتصق بي، تتنشّق رائحتي وتسحب شهيقًا عميقًا وتهمس:

ـ الله . . . ريحتك بحر .

ـ تحبّين رائحة البحر؟

ـ أحبّ ريحتك .

ـ لماذا لا تأتين معي إلى البحر؟

تتنهّد، فتشقّ النهدة قفص صدري وتستقرّ فيه علامة سؤال دائم :

ـ نحن البنات لا نذهب إلى البحر ولا نسبح إلّا مع أمّهاتنا .

ـ صحّ . . لكنّ الأولاد يذهبون إلى البحر ويشوفون البنات هناك .

تضحك :

ـ ميخالف . . . مع أمّهاتنا وأهلنا وأهلهم .

وأتذكّر أيّام الجمع والعطل حيث يزدحم الشاطئ بالناس، أمّهات وجدّات عمّات وخالات وأولاد وبنات . وأمّي مريوم .

تجلس البنات في حضن الأمّهات ليغسلن لهنّ شعورهنّ من الحنّاء، والنساء يغسلن المواعين والثياب والسجاجيد والألحفة، وأمّي مريوم تغسل (للعمّات) ملابسهنّ، وأكثر من مرّة رأيتها تغسل شعر وسميّة فأجلس بقربها مسحورًا بطول الشعر وكثافته فتنهرني أمّي :

ـ روح مع ربعك . . عيب تشوف البنات .

أحسّ بخجل وسميّة . . أبتعد لكنّي أجلس قريبًا أراقب ظهرها

الذي يطلّ من خلال الماء، وشعرها الطويل الناعم الذي يحوم فوق السطح تعابثه الموجات. كان عطر حنّائها يصلني، وكنت أخاف عليها حتى من نظرتي الطفلة.

نظرة كبرت..

وأنا أكبر مع الأيّام والسنوات.. استطال جسدي، واستطال جسد وسميّة.. وطالت بيننا المسافة.

لم تعد وسميّة تذهب إلى البحر.

صار البحر لي.... وحدي.

* * *

ـ ٣ ـ

تكبر وسميّة..

(يُخفّرونها)[1] وتتوارى خلف جدران البيت..

حرّموا عليّ الدخول إلى بيتها، فقد كبرتُ أنا الآخر...

أنا الذي كنت أسرح، وأمرح، أدخل ببقشة أمّي، أساعدها وأرغي لها الصابون، أطعم الببغاوات، وأملأ طاسة الرمل.

أنا رفيق طفولة وسميّة.. لم يرحموا الرفقة ولا قلبي. صار مكاني عند عتبة الباب، أجلس وتحرق مقعدتي لسعات العتبة التي صلتها الشمس، وتنصبُّ الحرارة على رأسي وتتسرّب إلى جسدي، يجفّ ريقي من العطش وأخشى أن أطرق الباب لأطلب قطرة ماء، وأظلّ أنتظر أمّي حتى تخرج.

لكنّ الحظّ يخدمني دائمًا.. أطلّت أمّ وسميّة ذات مرّة فلمحتني مُحتقن الوجه. أشفقت عليّ، أدخلتني إلى الدهليز

(١) حين تكبر البنت يخفّرونها ـ من الخفر ـ فلا تخرج من البيت.

وأحضرت لي الماء البارد والتمر ورمّانة أكلت حبّاتها حبّة حبّة. ومرّة أخرى أطلّ وجه وسميّة، ما إن رأتني حتى طفحت سعادة جامحة على وجهها:

ـ عبد الله؟!

شهقتُ من قمّة قلبي:

ـ وسميّة؟!

ـ ماذا تفعل هنا؟

ـ أنتظر أمّي.

ـ أمّك عندنا؟ والله أنا ما أدري.

وضعت كفّها الناعمة على ظهري وقالت:

ـ تعال.. ادخل.. الشمس حارّة.

لم أحرّك ساكنًا، وجهي إلى الأرض، ضحكت:

ـ أدري.. تخاف من فهد.

هززت رأسي بنعم.

سرحت وسميّة، أيقظتُها بسؤالي:

ـ بماذا تفكّرين؟

أجابت وكأنّها تحلم:

ـ بالبحر.

انتهزتُ الفرصة:

ـ تعالي نروح عنده.

تنهّدت بحسرة:

ـ أنت تعرف أنّني ممنوعة، أبوي مسافر و.. فهد.. آه، لو شافني...

حزنتُ لأجلها، حدّقتُ في عينيها وسألتها:

ـ أما زلتِ تحبّين رائحة البحر؟

بعجالة أجابت:

ـ أحبّها.. وأشمّها في الأصداف والقواقع التي لوّنتها، (والعوعو)[1] الذي أحضرته لي مرّة.

ـ خلّيني أشوف أصدافك.

ـ لأ ما تشوفها، خبّأتها في صندوقي وصعب أن أطلّعها.

اقتربتُ منها.. تعانقت أنفاسنا البعيدة.. ازددْت قربًا.. فدفعتني عنها بكثير من الخوف:

ـ ابتعد قبل أن يراك أحد.

وأردفت:

ـ فهد لو رآك سيضربك.. روح.

---

(١) العوعو: نجم البحر.

قلت بعناد:

ـ أنا أنتظر أمّي.

تحزن و.. تدخل. وتغلق الباب بلطف كأنّها تخشى أن يصفع وجهي. وأبقى وحدي أنتظر أمّي وأتمنّى لحظة أخرى تطلّ بها وسميّة.

يصيبني الملل.. فأحمل رائحة البحر.. ورائحة اللقاء النديّ القصير ورملي المتناثر من أقدامي و..

أبتعد... والرمل يرسم المسافة ما بين بيتهم وبيتنا.

آآه ما أطول المسافة وما أبعدها. عذّبتني المسافات وقهرت طفولتي.

* * *

طفولتي وطفولة وسميّة متناقضتان. كلّ شيء بيني وبينها يختلف. يؤكّد أنّ أيّ حلم يجب أن لا يداعب خيالي.

أحسد أمّي ـ مريوم الدلّالة ـ فهي تحظى برؤيتها بينما حُرِمْتُ منها بعد أن عشنا الطفولة معًا، وكبرنا معًا، سنوات قليلة حسبوها أكبر من عمرنا مرّتين. كبّرونا لأنّهم يريدوننا أن ننفصل.

هكذا هي التقاليد والعادات. وفهد الذي يقف لي بالمرصاد حتى في الشوارع البعيدة عن بيتهم، ويحدجني بنظرة قاسية وكأنّه يريد أن يذكّرني بوجوده.

كلّ شيء يفرّق بيننا. شيء واحد لا يعرف الفروق ولا يعترف بها ، الحبّ. . وسميّة تحبّني، تتغذّى بحكاياتي الصغيرة، وتشبع من رائحة البحر التي أحملها في أنفاسي وجلدي وكلّ شعرة في رأسي وبدني.

صوت الحبّ يصدح ويتعرّج في ممرّات الروح ويرقد في القلب فلا تخنقه السنوات ولا يغلبه الحرمان ولا يردّه الخوف.

آآه يا وسميّة..

راحت الأيّام وما راح حبّك من قلبي. يأخذ إجازة دقيقة ويصحو ساعات. ينام ليلة ويفيق ليالي طويلة أقاسي فيها وأتعذّب وأحلف أن لا تطأ قدماي بحرًا، ولا تصافح عيناي موجًا، ولكنّ الحنين يجذبني إليكِ.. إلى البحر الذي التقينا عنده أوّل مرّة.

* * *

ـ ٤ ـ

وصل إلى الطرّاد. . ألقى بجسده المتهالك في داخله. . أحسّه بيته، عُشّه الذي يأوي إليه وحيدًا ويحضن طيفها، يعود بذكرياته معها، يتنفّس كلّ نسمة مالحة تأتي بشذا عطرها.

و. . . يتذكّر. . .

يُغنّي. . . يطربه صوته الذي حبسه فترة. تتفجّر الأغنية ويحضنها الليل لينشرها سحابة عشق، ودقّة قلب. لا يريد أن تردّها إلى الصدر الذي تنبع منه، يريد لعطرها أن يفوح، أن يوقظ الأسماك، وجنّيّات الليل، وعيون وسميّة الراقدة في البحر منذ زمن.

الماء يتلألأ. . .

البحر هادئ. . .

رطوبة تتماوج آتية من العمق، تتناثر حوله وهو قابع في جوف الطرّاد، تداعب أنامله سيجارة مُطفأة. يراقب الكرب الأحمر الذي يتلاعب به الموج وقلبه يلعب كلّما اهتزّ. يُغيّبهُ الموج لحظة ثم حين

يطفو يحسّ الحلم يطفو في قلبه، ويسافر ذهنه إلى البيت الذي ترك فيه الزوجة التي ترفضه.

(هي الآن تنام مرتاحة من زفري).

المخبولة.. تتصوّر أنّني مع الأصحاب نلهو، ونشرب، ونضاجع جنّيّات البحر. هي لا تدري أنّني آتي وحيدًا لموعدٍ أرسمه في خيالي وأتمنّاه أن يتحقّق.

ربّما تأتي وسميّة...!

من يدري؟! ربّما هي تشتاق إليّ، فما يزال قلبها حيًّا لم تأكله حيوانات البحر، ولم تلتفّ عليه أعشابه الجائعة، ولم يتسلّل إليه قبقب فيفتّته.

آآه يا مواعيدي الضائعة.. يا حلمًا أنتظره كلّ ليلة وأتشبّع بالزفر وأحتمل صراخ (بقرتي) وأوامرها:

ـ اغتسل، اكشط جلدك.

ـ لقد كشطتُ حتى عظمي.

تنفخ وتسُبّ:

ـ لعن الله البحر ويوم البحر.

ـ لا تسبّي البحر.

تسألني سؤالاً تافهًا:

ـ لماذا تحبّ البحر؟

ـ لأنّه جميل ومليء بالخير.

تزعق من غيظها:

ـ خير البحر راح.

ـ الخير لا يروح منه.

ـ راح زمن الغوص، نحن الآن في زمن النفط.

ـ الخير في القديم الذي عاش عليه أجدادنا.

ـ الدنيا تغيّرت.

ـ لا يهمّني.. أنا أعشق البحر وأحبّ مهنتي.

تزعجني حين تقارن بين هذا الزمن وذاك فأتذكّر وسميّة.

كانت تحبّ البحر، كان الخير يأتيها منه، وكنت أحمل لها رائحته، كانت تحبّ زمنها وتلتصق به راضية وسعيدة، وزوجتي تكره البحر رغم عطاءاته وخيره، وتكره رائحتي.

تريدني أن أعود إلى الوظيفة.. امرأة متمرّدة.. وأنا الرجل السابح في حلمي.. في وهمي.. في حبّي. صعب على امرأة تافهة مثلها أن تفهم، وصعب أن أقنعها أن تحبّ زمنًا أصيلاً أحببته، تظنّه زمنًا فقيرًا جافًّا ليس فيه من المتع التي يحملها زمنها.

أنا و... وسميّة أحببنا زمننا، وعشقنا بحرنا، وحمدنا الله على خيره الذي أكلنا منه وكبرنا به.

صعب أن أصارعها وأناقشها وأجذبها إلى ما أحبّ.

وسميّة وحدها التي كانت تحبّ ما أحبّ.

* * *

تهرع إليه موجة متمرّدة، تهزّ الطرّاد، يرتمي متوسّدًا كفّيه، وعيناه ترنوان إلى السماء. كلّما برقت نجمة لمعت في رأسه شرارة ذكرى.

يُغلق جفنيه..

يصدح بأغنية يحبّها:

(يوم الاثنين الضحى.. شفت لي غروٍ عجيب..)

ويتذكّر وجه وسميّة.. كم كانت تليق بها عبارات أغنية البوشيّة:

(الخدّ ياضي لي برق وسميّة... والعين تشبه ساعة الربّان).

يحادث روحه، يتمنّى لو يسافر به الطرّاد إلى سنواته الماضية والذكرى تمزّق قلبه فيسأل نفسه:

ـ هل كنتُ أنا السبب؟

هل كان الخوف؟

هل كانت عيون العسس؟ أم عيون الناس المُطلّة من شقوق النوافذ؟ أم عيون أهلها وخاصّة أخاها الشرّير فهد؟

يذكر كيف كسر ساقه وطرده:

ـ إيّاك أن تأتي هنا.. اقلب وجهك وفارقني.

حاولتُ وأنا ابن مريوم:

ـ يا فهد، أمّي ترسلني لكم بالأغراض.

لكنّه لم يقتنع، تفل على وجهي:

ـ قلْ لأمّك أن تحضرها بنفسها.

حاولتُ أن أبرّر:

ـ أمّي مريضة.

ـ مريضة أو صاحية.. لا أريدك أن تأتي والسلام، أختي كبرت، وأنت كبرت، هل تريد أن يتكلّم علينا الناس؟

هكذا... كبرت وسميّة... وأنا كبرت... وكبرت بيننا الفوارق. صار لزامًا عليّ أن أبتعد، ألّا أطأ باب بيتهم، فما عدت ذلك الصبي الصغير الذي يمشي وراء أمّه وقلبه يسبقه، حتى شارعهم كان عليّ أن أحاذر المرور منه، أو حتى مجرّد التفكير بذلك، وإلّا سيكسر أخوها رأسي بعد أن كسر ساقي.

وسميّة أيضًا كبرت.. لا تخرج إلّا قليلاً بصحبة أمّها، تلفُّ جسدها الباسق بعباءة الحرير الأسود. أين منها عباءة أمّي الرخيصة المهترئة أطرافها؟

أمّا وجهها فكانت تحجبه ببوشية (التور)[1] التي تخفي جمال عينيها.

وأنا...

---

(١) التور: أي قماش التلّ.

لا ينعش قلبي إلّا مراقبتها من البعيد، حين يصدف أن ألمحها مع أمّها في السوق أو عند أبواب الأقارب داخلة أو خارجة، أو عندما تزورنا أمّها لتطمئنّ على صحّة أمّي بعد المرض. كانت تأتي وهي تحمل الهدايا من تمر وأرزّ، وفاكهة.

كانت وسميّة تقف في الحوش الذي نسكن إحدى غُرَفِهِ، تحاصرها نسوة الحوش وأطفالهم الذين يسيل مخاطهم وتفوح روائح سراويلهم، يتصايحون، ويتقافزون، ويسدّون المسافة أمام عينيّ اللتين تتعلّقان بوجه وسميّة ولا تريدان أن تلمحا سواه.

كنتُ أجلس في زاوية من زوايا الحوش المبلّلة ببول الأطفال. وأتابع بعينيّ وقفتها. أحسّ برائحة بخورها يتهادى إليّ فأنتعش، كانت وهي تلمحني في زاويتي ترفع يدها لتسوّي عباءتها، فتأتي بحركات أفهم منها أنّها تحيّيني، وتشكو لي نار الفراق الرابضة في فؤادها، ورجاؤها ألّا أنساها لأنّها ما تزال تذكرني و... تحبّني.

آآه يا وسميّة...

يا حُبًّا عاش وما يزال جبّارًا، كبيرًا، كهذا البحر.

* * *

يُصيب رأسه الدوار، يحسّ بالسماء تدور، والبحر يدور، وتزداد نغمات موجاته، ترتفع تهاليله، يطيش ويهدأ، يأتي الموج كالمستقبل اللّاهث، يضحك ثم ينسحب عائدًا كالماضي، ويبقى زَبَدَهُ متلألئًا، حاضرًا مهما تحرّك الموج ورحل.

السماء تزداد عتمتها ويختفي وجه النجمة الوحيدة، والشبكة غارقة في بطن الماء، والحلم يسكن في رأسه الدائخ.

هل يتحقّق؟

هل تأتي وسميّة وتدخل في الشبكة؟ أم هي ترفض العودة إلى عالم كبّل قدميها وقيّد قلبها وحرمها لقاء البحر الذي تعشقه؟!

حرمان يكاد أن يُفزع حمامات العقل فتفرّ طائرة، وتصير وسميّة في الحيّ حلمًا مجنونًا يشيرون إليه بأسف.

استلقى في حضن الطرّاد بعد أن احتوى البحر كلّه في عينيه، حمله داخلهما كمن يحمل كنزًا عزيزًا وقد ارتسمت ظلال الحزن

على أنحاء وجهه تحفر خطوطها أخاديد للدموع التي تنهمر من عينيه وتبلّل وجنتيه.

تمدّد... أسكت شهقات صدره وكأنّه يخشى أن تزعج البحر فيثور ولا يترك الفرصة لوجه وسميّة أن يأتي، لوسميّة كلّها.. تلك الغائبة التي يتصوّرها تحمل له موعدًا آخر وتزفّ نفسها إليه.

هكذا يتذكّرها كلّ ليلة.. وكم تؤلمه الذكرى حين يعود السؤال منشارًا حادًّا ينشر بعظامه:

هل كنتُ السبب؟

أنا الذي طلبتُ منها وشجّعتها أن تأتي.

أنا الذي قدّمتها وليمة للبحر.

لماذا أنكر هذا؟

ولماذا أحاول أن أنسى ما حدث تلك الليلة المرعبة؟

* * *

ـ ٥ ـ

عادت أمّي ذلك اليوم متعبة، شممتُ في ملابسها رائحة الحمّى والعرق، اندفعتُ إليها، حضنتُ وجهها، لسعتني حرارة بدنها وغزاني رعب شديد:

ـ أمّي هل أنت مريضة؟

هوى رأسها على كتفي و... بكت.

أمّي بكت...

كان الألم يمزّقها، سحبتُ الوسادة، وضعتها تحت رأسها، وسوّيتُ جسدها المحموم على الحصير، سقيتها ماءً باردًا ومسحت بقليل منه على وجهها وبلّلت شفتيها.

ـ أمّي.. هل آخذك إلى (الدختر)[1]؟

حرّكت كفّها بوهن:

ـ لا داعي.. سأرتاح بعد قليل.

(١) الدختر: الطبيب.

وأغمضت عينيها، ثم كمن تذكّرت شيئًا:

ـ عبد الله.. هناك أغراض ضروريّة لأمّ وسميّة، وقد وعدتها أن تكون الليلة عندها وأنا.. كما ترى..

جاء صوتها مغمومًا متقطّعًا وهي تكمل:

ـ ليتك يا عبد الله تأخذ لها الأغراض.

طار قلبي فرحًا، كدت أنسى جسد أمّي المحموم، وأحلامي تسافر بي بعيدًا عنها، لسعني شيء كمنقاش النار كاد أن يقتلعني من قربها، لكنّ وجهها الشاحب المتعرّق أعادني إليها قاصفًا فرحتي:

ـ لن أذهب وأتركك وأنت بهذه الحالة.

ـ يا وليدي أمّ وسميّة عندها باكر ضيوف وتحتاج للأغراض.

لوّحت بذراعي، نسيت وسميّة وأمّ وسميّة، ونسيت فرحتي:

ـ ولوْ.. هل من أجل أغراض الناس تفرّطين بنفسك وراحتك؟

توسّل صوتها:

ـ يا حبيبي حاجات الناس أمانة.

بإصرار قلت:

ـ الناس لازم تقدّر ظروفك، عندما تكونين بصحّتك لا تتأخّرين عنهم.

ـ الله يرضى عليك أمّ وسميّة حرّصتني. أرجوك.

ـ ولكن أ. . .

ـ لا تقل شيئًا. أنا أعرفك تحبّ أمّ وسميّة وتحبّ أن تخدمها.

أطرقت:

ـ هذا صحيح ولكن. .

طبطبتْ على كفّي:

ـ أنا بخير يا وليدي.

لمستُ بأصابعي رأسها المُبلّل:

ـ هل أعمل لك شيئًا قبل أن أذهب؟

ابتسمت:

ـ يا ليت. . كوب زعتر و. . زيد السكّر.

أسرعتُ أغلي لها الزعتر، أصبّه وأعود به تفوح رائحته العطرة وقلبي يهمس لها بالشفاء.

أسندتها لتجلس وتذكّرتُ شيئًا.

ـ أخاف يطلع لي فهد و. .

قاطعتني:

ـ فهد مسافر البحرين مع أبوه.

رقص قلبي:

ـ أمرك يا أمّي. سأذهب ولن أتأخّر.

* * *

كان اليوم جميلاً رغم تعب أمّي. ورغم النار التي تشوي جسدها، كان الفرح بردًا وسلامًا على روحي.

أسرعتُ إلى صندوق الملابس، أخرجتُ دشداشة العيد، ارتديتها على عجل وبحثتُ في بُقش أمّي المتناثرة عن عطر.. أيّ عطر.. دهن عود، دهن ورد، أو (بنت السودان)[1]. رششتُ على غترتي ودشداشتي ويديّ ودنوت من أمّي:

ـ أين الأغراض؟

أشارت إلى بقشة ممتلئة مطرّزة (بالزّري)[2]:

ـ هناك..

رأيت البقشة تزهو، تناديني أن تعال واحملني، واحمل روحك وفرحك، ضمّني إلى صدرك وطِرْ بي حيث تسكن وسميّة.

كانت البقشة ثقيلة، حملتها و... ضحكت. جاء صوت أمّي واهنًا:

ـ ليش تضحك؟

ـ أقول ما أكثر أغراض الحريم.

ضحكت مثلي:

---

(١) بنت السودان نوع من العطر الرخيص كانوا يستعملونه قديمًا.
(٢) الزري: خيوط ذهبيّة.

ـ حاجات الحريم كثيرة، يحبّون اللبس الزين، والبخّور وأغراض الزينة.

عدتُ إليها بعد أن كنت قد خطوت نحو الباب لأخرج:

ـ وليش تتزيّن الحريم يا أمّي؟

فوجئت بسؤالي وهي في ظرف تعبها:

ـ لأنّ الرجال يحبّون يشوفون الحريم الحلوات.

وداعبتْ كفّي وهي تسألني:

ـ وأنتَ.. ما تحبّ تشوف البنات والحريم متزيّنات وحلوات؟

ـ بس ليش أنت يا أمّي ما تتزيّنين ولا أشوف الكحل في عيونك مثل أمّ وسميّة؟

سحبتْ نهدة حزينة:

ـ من يوم ما مات المرحوم أبوك.. وأنا نفسي عافت الزينة.

فاجأني الفضول وأنا الذي كنت أتعجّل بالذهاب، سألتها:

ـ هل كنتِ تحبّينه؟

ـ (الحُرْمة) يا وليدي ما لها غير (رَجِلْها)، تحبّه وتخدمه وتتزيّن له وتخاف عليه، وأنا كنت أحبّ أبوك، كان سدرتي التي تظلّلني، لكنّ الموت خذاه منّي.

ـ وأبوي... هل كان يحبّك؟

ـ (عزّة الله) كان يدلّلني ويحبّني مثل عيونه، الله يرحمه ويغمّد روحه الجنّة.

تنهّدتْ ونغزت ذراعي:

ـ قوم يا عبد الله، لا تفتّق جروحي النايمة، قوم لا تتأخّر على أمّ وسميّة.

ـ هل زعلتِ منّي؟

ـ لا والله، بسّ تحسّرت على أبوك اللّي مات وخلّاك يتيم.

ألقيتُ بجسدي قربها، حضنتها، خبّأت رأسي في صدرها، تشمّمت رائحة مرضها، وعرقها، وحنانها، سالت دموعي ونشجتُ وأنا أقول:

ـ لست يتيمًا، أنت أمّي، وأبي، وكلّ أهلي، أنت كلّ شيء في حياتي، أنا أحبّك وأريدك راضية عنّي دائمًا.

ربّتت على ظهري:

ـ أنا راضية عليك.. والله راضي عليك. لا تبكِ.. دموعك تعذّبني. قوم اغسل وجهك وسوّي غترتك وروح بيت وسميّة.

هذه المرّة قالت بيت وسميّة...

لم تقل بيت أمّ وسميّة، ولا بيت أمّ فهد، لم أسمعها مرّة تذكر فهد، دائمًا تناديها بأمّ وسميّة.

هل أرادت أن تذكّرني بأنّني شغوفٌ لرؤية بيت الحبيبة؟

(ما أعظم حنانك يا أمّي! تعرفين ما بقلبي، وتفرحين لفرحي،

حتى وإن كان عمر الفرح لحظة).

حملتُ البقشة...

حملتني أجنحة السعادة طائرةً بي إلى شارعهم الذي صار مُحرّمًا، وهو اليوم حلال على قدميّ تطآن رمله، وتعابثان حصاه، وتعدّان شبابيك بيوته، وعتبات أبوابه، وترسم عيناي على جدرانه شوقي وفرحي.

اليوم يولد في روحي فرح أكبر وأثقل منّي. أخشى أن يطيح بي ويقتلني قبل أن أراها بعد أن غابت عنّي زمنًا، وفي طريق عودتي لا يهمّ أن أموت ما دام وجهها ينام في عينيّ.

طرتُ إلى بيتهم تهزّني الخيالات وتتقاذفني الظنون:

هل سأراها؟...

هل هي التي ستفتح الباب؟...

هل ستفرح أم تخجل وتتوارى؟...

هل ستمدّ يدها وتلامس كفّي التي داعبتها وهي صغيرة؟...

هل ستشمّ رائحتي البحريّة التي تحبّها؟...

هل ستحبّ عطري هذا أم تغضب لأنّني دفنت عطر البحر تحته؟...

هل... و هل... وهل...؟

قدماي تنهبان الطريق، والسماء تفور فوق رأسي، الشمس لا ترحم مهرجان السعادة الذي يملأني، فتصبّ سعيرها الذي صبّته

على رأس أمّي فأصابتها الحمى. هل أُصاب بها وتصدمني في هذا اليوم السعيد؟

كان لا بدّ أن أطرد كلّ الأفكار من رأسي، فالشارع المؤدّي إلى بيتها يدنو.. يدنو.. أم تراني أنا الذي أدنو!؟

تشعّ أنوار، وترقص ذرّات التراب، وتهتزّ أغصان شجرة وحيدة عند مفترق الطريق، أدلف إليه، تدخل إلى صدري رائحة حنان وماض عابق بالعطور، أشدّ الخطوة والبقشة في يُمناي تهتزّ مثلي، ويُسراي تشدّ على قلبي خشية أن يخذلني ويسقط.

أقترب...

هو ذا الباب...

مثل مارد ينتصب.. وجهه عابس في وجه الظهيرة اللاذع، ووجهي صفحة بحر رقراق تتلاعب عليه أسماك وأصداف الشوق.

أخيرًا... بيت وسميّة أمامي، بابه.. رائحته.. وذكرياته.

تلفّتُّ.. هل يراني أحد؟

كنت واقفًا كالمصعوق أتحسّس خشب الباب ومساميره قبل أن ترتفع كفّي لتمسك برمّانة الباب المتدلّية كقرطٍ كبير. و...

أطرق طرقة خفيفة كأنّي أريدها أن تصل أذن وسميّة وحدها.

هل ستسمعها وتعرف أنّها دقّة من دقّات قلبي؟ أم ستسمعها أمّها وتأتي لتأخذ البقشة وتقول: (مشكور وسلّم على أمّك) وتغلق الباب؟

لا . . أمّ وسميّة طيّبة، وهي لم ترني منذ مدّة، أكيد سترحّب بي وتدعوني إلى الدخول وتقدّم لي الماء البارد وتعطيني بيضًا وعنبًا، وقد تعطيني الفرصة لأرى وسميّة.

لا . . لا أريد أن تعطيني هي الفرصة، لا أريدها أن تسمع دقّة الباب، أريد وسميّة بنفسها.

آآه يا أحلامي!!. . .

كرّرت الطرق على باب الحبيبة وأنا أشعر بالزمن المتناثر يتجمّع كلّه ليصير زمنًا طويلاً. القلق يتسرّب إلى أعضائي كلّها وأنا واقفٌ أنتظر.

مرّة ثالثة أطرق الباب، وقبل أن أيأس سمعتُ صوت أقدام رقيقة ثم. . .

يُفتح الباب وكأنّه باب جنّة تفوح منه روائح بساتين ورائحة وسميّة، ويطلّ وجهها.

هل أصدّق؟

هل هو عَرَقُ الظهيرة تجمّع ورسم لي الصورة؟

هل أخذتني غفوة وما هذا سوى حلم سريع؟ أم أنّه كرَمُ القدر يمدّ لي يده بالخير؟

فركت عينيّ لأصدّق. . .

إنّها هي. . .

وسميّة التي كانت طفلة تلهو معي، ونلعب في حوش بيتهم

وحظيرة دجاجهم ونتقافز على التراب ونختفي وراء الأبواب الهنديّة وأعبث بشعرها الطويل.

إنّها وسميّة..

تقف أمامي صبيّة رائعة بلا عباءة ولا بوشيّة ولا تقاليد ولا وجه فهد الغليظ.

وسميّة التي ظلّ حبّها يكبر ولا يهدأ إلّا حين أداعبه بأحلامي وآمالي فيستريح قليلاً ليعاود شقاوته، وينطُّ داخل صدري كلّما سمعتُ اسمها أو تصوّرتها، وأنا أجلس في مواجهة البحر أعدّ القواقع وأجمع الأعشاب، أو أرتمي بداخله أبلّل جسدي وأودّ أن أسحب كلّ رائحته لأختزنها إلى لحظة تراني فيها وسميّة التي تحبّ رائحتي.. أنا الطفل الذي ارتبطتْ طفولتها بي.. أنا ابن مريوم الدلّالة.

* * *

انقشعتْ غمامة عينيّ ووجهها الرائع يطلّ من الباب و.. همستها:

ـ عبد الله؟!

شهقتْ بفرحة لا تخفي عليّ، والتمع في عينيها شعاع، واستفاقت على شفتيها زهور وهي تهتف ثانية:

ـ عبد الله؟

غرّد صوتي:

ـ وسميّة؟!

بدهشتها بعد فرحتها:

ـ ما الذي جاء بك في هذا الحرّ؟

لم أشأ أن أنظر إلى البقشة لتفهم. أردتها أن تعرف أنّ قلبي هو الذي جاء. وأنّ شوقي هو البحر الذي هاجت مياهه في هذا الحرّ فأخذني سابحًا إليها. لم أحتمل أن تفارق عيناي وجهها لحظة وأنا أشير إلى البقشة، وظلّت الحيرة ترتجف على شفتيّ وهي تهمس:

ـ الدنيا حرّ.

أوسعتْ من فتحة الباب:

ـ تفضّل..

تقول لي تفضّل.. هل أصدّق؟

كدتُ أتردّد.. تطلّعت ورائي إلى اليمين وإلى اليسار. هل من أحد في الشارع؟ هل من عين ستقنص خطوتي وتحرمني لذّة التفضّل؟

حرّكتُ قدمي اليمنى بثقل واضح، ألحقتها باليسرى بثقل أخفّ، ودلفتُ تسبقني البقشة التي ترتجف معي.

كانت ركبتاي ترتجفان..

يداي ترتجفان..

شفتاي ترتجفان..

عيناي أحسّ الرجفات فيهما كالريح.

وحلقي يجفّ وهي تطرح سؤالها غير مصدّقة:

ـ أنت يا عبد الله؟

أسعفتني شفتاي:

ـ أنا يا وسميّة.

غنّيتُ اسمها غناءً وهي تتأمّلني من رأسي حتى قدميّ:

ـ كبرتَ يا عبد الله.

تأمّلتها بكلّ شوقي، ذررتُ على جسدها آيات التبريك:

ـ وأنت يا وسميّة.. كبرتِ وصرتِ حلوة أكثر.

خجلت.. أسبلت جفنيها وصوتها:

ـ صحيح أنا حلوة؟

ـ بل أحلى من الدنيا كلّها. ما شاء الله.

ابتسمت ابتسامة كبيرة وبانت صفوف اللؤلؤ. همّتْ أن تتحرّك:

ـ سأنادي أمّي.

ثم استدركت:

ـ سأحضر لك ماءً باردًا.

هل أتركها تذهب؟

أكون مجنونًا . . لقد حطّتْ كالغدير العذب على قلبي، بلّلت جفافه وجفاف حلقي، وكالفراشة تهفّ بأجنحتها وتنشّف عرقي. فهل أترك الفراشة تطير ويتبدّد الحلم الذي انتظرتُ أن يتحقّق؟

فاجأتني جرأتي، مددت يدي، أمسكت بذراعها، شهقت، شددت عليها فتأوّهتْ وسحبتها وكأنّها سحبت عرقًا من عروق قلبي، فأعدتُ الإمساك بها ورجوتها:

ـ لحظة . . أرجوك يا وسميّة.

ـ عبد الله!

ـ أنا (ولهان عليك) يا وسميّة. حرموني منك، حتى أمّي التي تحبّني لا تريد أن تُغضب أهلك، وأنا . . .

ـ أنت تؤلم ذراعي. هل أهون عليك؟

عاتبتني برقّة فأرخيت كفّي لكنّها ظلّت تحنو على ذراعها:

ـ اعذريني . . من كثر فرحي بك. هل أنت فرحانة أم نسيت عبد الله؟

تلوّن وجهها بالخجل وهمست:

ـ أنا يا عبد الله أذكرك دائمًا ولا أنساك.

اهتزّت أغصان قلبي:

ـ وأنا يا وسميّة . . لم أنسَكِ ولا تغيبين عن بالي.

وارت وجهها المتورّد وتلعثمت:

ـ هل.. هل.. ما زلت....

أكّدتُ لها وكنت أخشى أن تفرّ الكلمات:

ـ طبعًا. أنا أحبّك يا وسميّة. لم أنس طفولتنا ولا..

آه.. ماذا أقول؟ ودّي أشوفك يا وسميّة، وأقعد معك ساعة، وأقول لك كلّ شيء في قلبي.

لم أصدّق سمعي وهي تُصرّح لي:

ـ وأنا يا عبد الله أتمنّى مثلك. أتلهّف عليك وأسأل أمّك عن أخبارك وأرسل لك السلام، هل يصلك؟

ـ هي تعرف أنّ هذا يفرحني فلا تنسى توصيل سؤالك وسلامك.

ـ وأنا يصلني سلامك وأحبّ أشوفك، لكن!

وتنهّدتْ عميقًا:

ـ الناس وأهلي، وأنا ما أقدر.

ـ لا تخافي يا وسميّة، إذا كنت تحبّين أن نلتقي فنحن نقدر.

شهقتْ:

ـ معقول!؟ كيف؟ وأين؟

فرحتُ بسؤالها.. أعطتني مزيدًا من الشجاعة لأقول:

ـ نروح البحر.

ارتعدتْ:

ـ ماذا تقول؟ هل جننت؟

ارتبكتُ:

ـ أقو... أقول.. نلتقي عند البحر باكر.

خبطتْ بكفّها المُحنّاة على خدّها:

ـ باكر؟

تردّدتُ قليلاً حين ثار الفزع من عينيها، أدركتُ أنّني استعجلت:

ـ باكر.. أو بعد باكر.. يعني أيّ يوم.

تأمّلتْ وجهي، كانت لا تصدّق ما تسمع، كأنّها تريد أن تتأكّد من أنّ وجهي ولساني هما عبد الله الطفل الذي كنته وصار الآن وجه عبد الله الشابّ، العاشق، وهمست:

ـ أظنّك جننتَ فعلاً.

طأطأتُ رأسي فأشفقت على ذلّي:

ـ يا عبد الله كلامك غريب، كيف أخرج؟

أعطاني سؤالها غير الجادّ فرصة لأتغلّب على نفسي وأتابع المشروع الذي بدا كما الحلم:

ـ تخرجين في الليل.

ـ في الليل؟

ـ وليش لأ؟

ـ وأمّي؟! والناس؟

ـ أمّك وأمّي وكلّ الناس ينامون بعد العشاء و. . .

قاطعته:

ـ وماذا بعد؟

ـ أبوك وفهد مسافران.

حرّكت رأسها مُندهشة ممّا عرضته عليها، وعلى وجهها تطوف سحابة أمل. عيناها في لحظة سافرتا، اخترقتا الجدران، قطعتا الشوارع، وصلتا إلى البحر، زفّت نفسها إليه، ألقت بأحلامها بين يديه، استفاقت من سياحتها، ابتسمتْ وسألتني:

ـ ماذا سنفعل هناك؟

ـ لا تقلقي. . سنجلس ساعة ونتذكّر أيّامنا وسنواتنا ويحكي كلٌّ منّا للآخر كلّ شيء ثم ترجعين.

هزّت كفّها رافضة:

ـ لا. . لا يمكن.

بحزن وتوسّل سألتها:

ـ ليش يا وسميّة؟

ـ لا أقدر. . هذا الذي تقوله غير معقول، وأنا أخاف ولا أجرؤ.

ثم حدّقت في وجهي بغضب:

ـ أنت أكيد مجنون. . افترض شافنا أحد.

افتراضها يعني أنّها تحاور نفسها، شحنتُ نفسي بالقوّة:

ـ لا تفرضي شيئًا، الناس نيام والليل ستّار.

أرخت رأسها تفكّر، طالت اللحظة فاستعجلتها:

ـ ها. .؟ هل توافقين؟

ـ . . . .

لم أحتمل صمتها، هل تُقلّبُ الفكرة في رأسها أم تشكّ بأنّني مجنون؟

لم أبدِ حركة، تركتها تمارس عنادها وحوارها مع نفسها وحين أطالت كرّرتُ رجائي:

ـ وسميّة. . هل تأتين؟

ماجت الحيرة في عينيها، تردّدت ثم رفعت وجهها إليّ وكأنّها قد قرّرت أن تتحدّى الحصار، أن تعطي لنفسها الحقّ ولو لمرّة واحدة، وأن تخوض غمار تجربة لم تخطر ببالها لتنعش قلبها الذي حكموا عليه أن يفارق مرابع طفولتة وأراجيحها. قالت وما تزال الحيرة على وجهها:

ـ اتركني أفكّر، وسأحاول.

ازداد تشبّثي بالأمل ، ألححتُ:

ـ لأ. . قرّري الآن حتى أنتظرك.

بدا عليها التوتر:

ـ قلت لك سأحاول.

نامت الفرحة في صوتي:

ـ أرجو أن تحاولي، إن كنت.. إن كنت...

قاطعتني:

ـ صدّقني سأحاول، سأكون مجنونة مثلك وحين أقرّر سأخبرك.

ـ كيف؟

كأنّني بسؤالي وضعت أمامها عقبة كبيرة وذكّرتها بأنّ الوسيلة إلى اللقاء مصادفة أخرى كهذه قد تتعذّر.

سطع فرح من عينيها وكأنّها وجدت الفكرة:

ـ أقول لك.. إذا قرّرت الخروج معك سأضع هنا حجرًا كبيرًا.

وأشارت إلى عتبة الباب في الخارج.

ابتسمتُ بوسع ثغري:

ـ هذا عن الموافقة.. ماذا عن الوقت؟

نظرت إليّ باستخفاف:

ـ يا شاطر.. العلامة معناها الموافقة في اليوم نفسه.

كركر قلبي..

كاد أن يتدحرج إلى الأرض تحت قدميها، يقبّلهما شاكرًا ثم ينزوي مكان الموعد وينام حتى يحين. لكنّني لم أصدّق! خشيت أن يكون مزحة منها، سألتها والشكّ يساورني:

- لكن يا وسميّة أخاف مثل ما يقول المثل: (انطر يا حمار لمّا يجيك الربيع)[1].

ـ لأ يا ـ حمار.

ضحكنا.. وقالت بخجل:

ـ قصدي يا عبد الله هاليومين إن شاء الله.

وأردفتْ:

ـ ولو أنّني خائفة.

ـ لا تخافين.. أنا معك والليل ستّار.

ـ طيّب.. طيّب.

تذكّرتْ أنّنا ما نزال وحدنا وأنّ معي أغراضًا لأمّها. تحرّكتْ:

ـ سأنادي أمّي.

قبل أن تركض مسّت كفّها الحلوة صدري ودفعتني إلى الخارج:

ـ ميخالف عبد الله.. لا أريد أن تعرف أمّي أنّك دخلت وأنّنا تكلّمنا، أرجوك لا تزعل.

---

(١) مثل كويتي يعني طول المدّة.

ـ أزعل!؟ أنا لا أزعل منك يا وسميّة.

كنت خلال كلماتها المنبعثة من ثغرٍ عبقٍ وصدرٍ صافٍ أستلّ نفسي إلى الخارج مُرغمًا، لا أريد أن أفارقها ولا تفارق أنفي رائحة بخورها.

خرجتُ، وبقيتْ فتحة صغيرة من الباب قبل أن تسدّها. أطلّت منها لتؤكّد:

ـ انتظر منّي الإشارة.

ـ سأنتظر ولو ألف سنة.

وانتظرت...

جلستُ على العتبة.. عيناي تصبّان على المكان الذي أشارت إليه.. هنا ستضع علامة الحلم، الأمل، هنا في هذه المساحة الصغيرة ستعلّق قلبي وبصري، هنا... ليت قلبي ينام هنا.. ليت عينيّ تفرّان من وجهي وتنامان هنا. هل أستطيع أن أبتعد عن هذه البقعة التي تتعلّق بها أقراط الحلم؟

سوف أنتظر...

وانتظرت..

لا أدري كم مرَّ من الوقت لحين جاءت أمّها لتدخلني ثانية وتغمرني بكثير من الحنان.

* * *

ـ ٦ ـ

أمّ وسميّة طيّبة، كانت وظلّت، كبرت قليلاً، جسدها الممتلئ ينبئ عن حياة العزّ التي عاشتها، ليس كجسد أمّي الذي يُشبه (القصمول)[١]. أمّ وسميّة مربوعة القامة، وشعرها غزير أجعد، تفرقه دائمًا من الوسط وبعض شعيرات بيضاء تسلّلت إليه تسلّلاً خجولاً.

شعر أمّي ناعم خفيف وشيْبُه أكثر، شيّبها التعب.. وانزرعت نجمات ليالي الشقاء الطويلة كلّها في مفارقها.

أمّ وسميّة لها وجه مستدير وجبين عريض، أنفها دقيق وثمّة شامة ناتئة ترقد عند حاجبها الأيسر، فمها جميل.. شفتان مكتنزتان مضمومتان. لقد ورثت حبيبتي وسميّة جمال فم أمّها، ولون بشرتها الأسمر.

فم أمّي أوسع، وشفتاها رقيقتان جدًّا وكأنّها كانت تقتات من لحمهما. عيناها أوسع، وبشرتها بيضاء مُصْفرّة في الغالب.

---

(١) القصمول: عود النخلة الجافّ العاري.

أحببتُ أم وسميّة وطيبتها التي تفوح من وجهها ابتساماتٍ دائمة، وكرمها الذي لا ينقطع من كفّين حنونين.

حين رأتني تهلّلت، وأشرقت على وجهها غيمة باردة ـ رغم القيلولة الحارّة ـ ورغم النعاس الواضح من عينيها. رحّبت بي بحرارة:

ـ أهلاً يا عبد الله حيّاك الله.. تفضّل.

أوسعتْ لي الباب الذي دخلته في غفلة منها وأخذت الوعد من وسميّة.

دخلتُ الدهليز فسألتني عن أمّي، لم أشأ أن أضنيها بخبر مرضها، ولم أرغب لوجهها الشاكر أن يتغضّن أو يتألّم، لكنّني اضطررتُ أن أخبرها:

ـ أمّي مريضة وحرّصتني أن أوصل لك الأغراض.

أخذت البقشة من يدي وهي تقول:

ـ يا لأمّك الحريصة.. أرسلتك في هذا الحرّ القاتل.

ـ تقول أمّي إنّها أغراض ضروريّة.

ـ أيْ والله يا وليدي، ولكنّها كلّفتك مشقّة.

ـ عفوًا.. لا مشقّة، أنا تحت أمرك وأمر أمّي.

لم تكن تعلم أنّ هذا الأمر مصدر سعادة لي، لم تكن تدري أنّ حرّ الظهيرة يهون، والمشي تحت وابل الشمس يهون، وكلّ شيء يهون، في سبيل أن أتنسّم ولو رائحة شارعهم، وألمح باب

بيتهم، فكيف لو درت أنّ أمر أمّي المحمومة كان السبيل لرؤية وجه الحبيبة ومحادثتها والاتّفاق معها على لقاء. . . وأيّ لقاء!

هل أنا حقًّا مجنون؟

هل أنا أحمق لهذا الحدّ حتى أصدّق!

هل يعقل أن تطاوعني وسميّة وتخرج لتلاقيني؟

هل أنا المجنون أم هي المجنونة؟

سرحتُ بخاطري وأمّ وسميّة تكيل الشكر لأمّي والدعوات لها بالسلامة، أردتُ أن أتحرّك لكنّها بلطف أمرتني:

ـ اصبر شويّة. لا تروح. .

دخلتْ إلى الحوش، تسحّبتُ وراءها أطلّ برأسي من الدهليز فقد تكون وسميّة واقفة في مكان ما.

درتُ برأسي أتابع أمّ وسميّة وهي تتّجه إلى غرفتها، وحين اختفت حرّكتُ رأسي ناحية الغرفة الأخرى. . .

هي ذي وسميّة تطلّ، تنسدل خصلات شعرها على كتفيها، تبتسم. . وتهزّ رأسها كأنّها تؤكّد لي: (نعم يا عبد الله. . سنلتقي).

ماذا أتمنّى بعد ذلك؟ هل أصدّق أم أحسبه حلمًا؟ لكنّ وسميّة أمامي وكانت معي تؤكّد الصحو والوعد.

خرجتْ أمّها من غرفتها فتواريتُ مسرعًا نحو الباب وأنا أسمع صوت مداسها يزحف على الأرض الحارقة. اقتربتْ منّي تمسك بيدها صرّة قدّمتها لي:

ـ خذ يا عبد الله.

فتحتُ فمي لكنّها أسرعت تكمل قبل أن أسأل:

ـ بعض الحاجات للوالدة.

هكذا هي دائمًا، لا تردّني خاليًا ولا تردّ أمّي خالية، شكرتها بكلّ الحبّ الذي أكنّه لها ولابنتها. أتمنّى ألّا تنتهي اللحظة ـ الحلم ـ لكنّ الباب أمامي وأمّ وسميّة أيضًا يؤكّدان أنّ اللحظة حقيقيّة، وأنّني صاحٍ ولست نائمًا ولا حالمًا وعقلي سليم. إذن كلّ شيء حقيقة ثابتة حتى الوعد بالمحاولة من وسميّة ثابت.

اندفعت إلى الباب خارجًا من الدهليز، وبعد أن كنتُ محروسًا فيه من غليان الشمس انفكّ أمامي مصراع الحرّ وغضب الطبيعة.

صافحتْ عيناي الشارع، أحسسته يزهو بغلالة ورديّة.. جديدًا صار الشارع وكأنّه اتّسع، كأنّه تندّى بألف قطرة حبّ، كأنّ جدران البيوت والمحلّات قد ارتسمت عليها تلاويح حبّ وأمواج حبّ وكلمات حبّ. كأنّ الشارع كلّه بدل أن يغرق في غليانه يعوم في بحر بارد يتّسع لألف قلب. وفيه تسبح الأبوام وتشرّع للهواء أشرعتها البيضاء تدعو كلّ العشّاق والمحبّين والحالمين المنتظرين أمثالي، تدعوهم لرحلة شفّافة في عمق السعادة وحضن المستقبل الباسم بعيدًا... بعيدًا... حتى عن اللحظة التي أحمل فيها الصرّة وأعود إلى البيت حيث ترقد أمّي المريضة البعيدة عن مراكب الحبّ وبحره الأزرق.

* * *

حين دخلت بهدوء كانت أمّي تغطّ في نوم عميق، صوت شخيرها الخفيف يصاحبه صفير واهن من أنفها. اقتربتُ منها، ألقيتُ على وجهها النائم نظرة مشحونة بالعطف والحبّ، رفعت يدي لأمسح حبّات العرق التي تتكوّم على جبينها الساخن، لكنّني تراجعتُ خشية أن تصحو وأنا الذي أعلم كم هي بحاجة لهذا النوم المريح، كما أنا بحاجة لاستعادة لحظة لقائي بوسميّة.

استلقيتُ بقربها أتأمّل نومها... أناجي روحها.. وأفشي لها فرحة قلبي، لا أريد أن أغمض عينيّ حتى لا يغيب وجه وسميّة ووعدها لي بالمحاولة.

(آآه يا أمّي... لو تدرين أنّ ابنك يطير بلا أجنحة ولا يحمله كلّ الفضاء).

أردتُ أن أظلّ صاحيًا متيقّظًا حتى اليوم الذي يصبح فيه الوعد حقيقة. اليوم الذي أرى فيه علامة القبول عند باب بيتها.

أخذتُ أبحلق بالسقف المهترئ الذي تغمرنا منه في الشتاء

سكبات المطر النازفة من شقوقه، فنتنقّل في الغرفة باحثين عن بقعة لا يطالها النزيف.

تأمّلته طويلاً.. رسمتُ على مساحته صورة لقاء قريب يتمّ على البحر.

هل يتحقّق اللقاء وأرى وسميّة على ساحله تبلّل قدميها بمائه ويتناثر شعرها بهوائه، وتشمّ زفره الذي تحبّه بملابسي وجلدي حين أعود منه بملحي ورملي يتساقط؟

كم أتوق أن يستحمّ شبابها في زرقته، ويرتاح جسدها على رمله الذي تفتّح حبّنا الطفولي عليه وعاش حتى لحظة وعدها!

* * *

ـ ٧ ـ

رائحة البحر تتسرّب إلى أنفاسه، رائحة أعشابه، رمله، رائحة وسميّة المدفونة في بطنه. تكاد دموعه أن تغلبه وهو مستلق في الطرّاد، والموج كفّ أمّ تهزّ سرير طفلها. تسافر به الأحلام إلى زمن وسميّة، ثم تعيده إلى الواقع وزوجته التي تركها في البيت.

هذه الليلة لن يعود... لقد رفضته، عيّرته بأنّه لم يعد شابًّا قويًّا يحتمل تعب البحر والصيد، وقد سألته بغباء كما تفعل كلّ مرّة:

ـ لماذا تحبّ البحر؟

لم يجبها، هرب نحو الباب لكنّها لاحقته بسؤال آخر:

ـ متى ستعود؟

أجابها من طرف شفتيه:

ـ لا أدري.

أكّدتْ له رغم عجالته:

ـ لا تتأخّر.

عاد خطوتين... نظر إليها باشمئزاز:

ـ وما شأنك بي؟

ثارت:

ـ الآن جئت. والآن تذهب.

ـ لقد أثرتِ أعصابي.

ـ لا تهمّني أعصابك، أسألك متى ستعود.

تحدّاها:

ـ لن أعود.. لا تنتظريني.

هزئتْ منه:

ـ ومن قال إنّني سأنتظرك أو يهمّني أن أنتظرك؟

هكذا هي دائمًا، تقول لن تنتظر لكنّها تفعل، وهو يكره أن يراها مستيقظة لأنّها ستثرثر وتعيده إلى واقعه وحياته المزعجة معها، فتطير من مسامعه ثرثرة البحر وهمساته ونجواه التي يحبّ أن تبقى موسيقاها في أذنه تحمل معها همس الحبيبة التي غابت فاضطرّ أن يتزوّج وظلّ يشعر بالندم.

* * *

لماذا تزوّجتُ؟

كان يجب، وأنا العاشق المتيّم بالبحر ووسميّة، أن أبقى

(عازبًا)، لكنّ السنوات مرّت، وأمّي كبرت وشاخت حتى رموش عينيها، وانبرى لسانها من كثرة ما توسّلتْ:

(تزوّج يا عبد الله، أريد أن أرى عيالك).

كنت قد اعتدت حياتي ونذرت قلبي لوسميّة، لا رغبة لي في الزواج ولا رؤية وجه غير وجه وسميّة يشاركني صحوي ومنامي.

كنت أكبُرُ.. ومدينتي الصغيرة أيضًا تكبر، زحفت إلى خارج السور، زحف الناس وتفرّقوا، اتّسعت البيوت، تغيّر طابعها القديم، والشوارع الترابيّة اتّسعت ودكّ الإسفلت ترابها، حتى أنا وأمّي تركنا الحيّ القديم الذي أودعتُ فيه كلّ ذكرياتي، صار لدينا بيت (من ذوي الدخل المحدود) بعد أن صرت موظّفًا وخدمت بالحكومة، لكنّني ظللت وفيًّا للبحر والصيد في أيّام العطل والأعياد، ولم أسمح لأمّي أن تمارس مهنتها القديمة التي استلّت عافيتها وهشهشتْ عظامها، لكنّها ظلّت وفيّة لكلّ معارفها ولم تنس أصحاب البيوت التي كانت تدخلها، عرفت بيوتهم الجديدة وظلّت تزورهم وتقوم بواجبها نحوهم في الأفراح والأحزان.

أمّا بيت وسميّة الذي صار أبعد، فقد كان أحبّ البيوت لها، تزوره يوم الخميس من كلّ شهر وتبيت فيه. تستعيد ذكريات الماضي وتلاعب أطفال فهد الذين ملأوه، وحدها وسميّة لم تر البيت الجديد، كنت حين أذهب لأُعيد أمّي إلى البيت أقف عند الباب فتأتي أمّ وسميّة تسلّم عليّ وكم عاتبتني:

ـ يا عبد الله ليش تعذّب أمّك؟ لازم تتزوّج وتخلّيها تشوف عيالك.

كنت أبتسم لها وأهزّ رأسي:

ـ يصير خير يا أمّ فهد.

لا بدّ أنّها تدرك سرّي، تعرف أنّني بعد وسميّة لا أرغب في وجه امرأة سواها، وأمّي تلحُّ و.. تلحُّ. تتوسّل، لكنّي أرفض الفكرة وأرجوها ألّا تغصبني. وحين تبكي أشفق عليها وأسأل نفسي:

(لِمَ الانتظار؟ لِمَ أغرس في قلب أمّي شوكة؟ هل أنسى كم تعبت لأجلي؟ كم كدحتْ وسهرتْ لأكبر؟ والآن بعد أن كبرتْ لا أريح شيخوختها وأكافئها؟ أردّ لها بعض الدين وأهديها أحفادًا يُسلّون وحدتها ويرفرفون حولها ويعيدون لها الفرح الذي شاب وذاب في قلبها؟ لن أكون عاقًّا بها وقد كانت الرحومة بي).

هكذا...

رضيتُ أن أدخل الحياة الجديدة، دنيا تريدها أمّي لي. دنيا لا أحمل لها أيّ رغبة... أيّ لهفة... دنيا لا يهمّني من يشاركني أيّامها ولياليها، كلّ ما كان يهمّني أن أُرضي أمّي العجوز وأسعدها. قلت لها:

ـ خلاص يا أمّي اختاري لي زوجة.

عصفت الفرحة بها حتى خشيت أن تطوّح بجسدها الضامر:

ـ كيف تريدها؟ سمرة، بيضة؟ طويلة، قصيرة؟ نحيفة، سمينة؟

ـ ليس لي شروط.. أنت قُصّي وفصّلي وأنا ألبس.

حقيقة لم يهمّني من تكون، ولا ما هو شكلها ولونها، فبعد لون وسميّة ماتت بنظري كلّ الألوان، ولم يبق سوى لون البحر الأزرق الذي يخطف نظري وينعش قلبي. لم أشترط شيئًا.

ألم يكن من الأفضل أن أشترط على أمّي لتختار لي واحدة تشبه وسميّة؟ لكنّني أبيتُ التشبيه، لا أريد أن أرى أيّ ملمح يشبه ملامح وسميّة، لا أريد لعينيّ أن تعشقا حتى الملمح البسيط في وجه امرأة أخرى، أريد وسميّة وحدها متفرّدة بجمالها، وبعشقها للبحر الذي دفعتني إلى خيره فأدمنتُ الصيد والانتظار لأجلها.

وسميّة جعلتني أغتني من البحر، وبيدي بعد ذلك زرعتها في قلبه. فكيف أتصوّر أنّ هناك واحدة مثل وسميّة أو شبهها؟

* * *

عاد ذهنه إلى بيته.. إلى زوجته.. تلك التي تكره البحر وتعتبره ضرّة لها، وتحاول بكلّ وسائلها أن تنزعه من زمنه وتفرض عليه أن يعيش زمنها الذي تفجّرت فيه ينابيع الذهب الأسود. فغيّرت شكل المدينة وحال كثير من ناسها الذين تفجّر فيهم الجشع واللهاث لكلّ شيء جديد، وتغيّرت براءة نفوسهم.

هذا ليس زمني، فكيف أحبّه؟ هناك عند البحر أجد عالمي، أسبح فيه، ولأجله تركت الوظيفة وتفرّغتُ لخيره الباقي الذي أجلبه حيًّا يلبط حتى أصل به إلى السوق، هو الذي يهوّن عليّ ويجعلني أشعر بالراحة ورضى وسميّة عنّي.

أتخيّلها تراني في كلّ مرّة أذهب إليه وأرمي شبكتي، وأتخيّلها تنتظر معي وأنا أنتظر. وحين أسحب الشبكة أتمنّى لو أنّها تصطاد لي وسميّة أو شيئًا من أثرها. كثيرًا تخيّلتُ أنّها ستخرج، ستبتسم لي تلك الابتسامة العذبة، وتفرد ذراعيها، تحضنني، تلهبني بقبلاتها، تشكرني أنّني ما زلت وفيًّا لبحرنا الذي نحبّه.

وزوجتي الغبيّة تُصرّ وتسألني (لماذا تحبّ البحر).

قلت لها مرّة:

ـ أحبّه لأنّني أكرهه، وأكرهه لأنّني أحبّه.

ردّت وكأنّها تأسف لحالي:

ـ أنت مجنون و... تهذر.

مجنون... تلك هي تهمتها دائمًا.

لكنّني حقًّا مجنون.

* * *

مجنون لأنّه طاوع أمّه وتزوّج. مجنون لأنّه لم يشترط أن تزوّجه واحدة تعشق البحر وتذوب فيه مثله. مجنون لأنّه أرضى أمّه وأشقى نفسه. وها هو لم يحقّق شيئًا لأمّه، فلا هي عاشت.. ولا حضنتْ أحفادًا.

نعم.. هو مجنون بوسميّة وبحبّه للبحر.

يتحرّك به الطرّاد، يتراءى له وجه زوجته الكشر، تراوده نفسه أن يقصر الشرّ ويعود إلى البيت، لكنّه يصرّ على قراره:

(لن أعود الليلة ولا باقي الليالي لأنّها ستظلّ تعيّرني بزفري وتُثير غضبي، متصوّرة أنّني سأخجل من رائحتي وأهجر بحري لكنّني لن أحقّق غايتها).

هل من عشق البحر طفلاً، وصبيًّا، وشابًّا، يقوى على هجره وهو في هذه السنّ؟ لقد حاولت أمّي قبلها وكنت بعد صبيًّا:

ـ يا عبد الله كلّ وقتك ضايع عند البحر.

ـ أحبّه يا أمّي.

ـ لقد وعدتني أن تساعدني حين تكبر.

تذكّرتُ وعدي لها:

ـ نعم وعدتك، ولكن ماذا أشتغل؟

ـ أبو يوسف يريدك في منجرته لتتعلّم القلافة.

رفضتُ:

ـ أكيد أنتِ التي عرضتِ عليه.

ـ ليس عيبًا، المهمّ أن تشتغل.

ـ لا أحبّ القلافة.

لم أستطع التخلّص منها، كان جوابها جاهزًا:

ـ زين.. أبو جاسم سألني أن تعاونه في الحِدادة.

ـ لا أحبّ الحدادة ولا صوت المطارق.

ـ ماذا تحبّ إذن؟

ـ أحبّ البحر، وسأعمل مع الصيّادين وأصير سمّاكًا.

* * *

رضخت أمّي لرغبتي وتركتني للبحر أرتاده ليل نهار، يلاحقني خوفها وتحذيرها المستمرّ:

(البحر غدّار، وأخاف عليك منه).

أطمئنها بأنّني سأكون حذرًا، وأطلب منها أن ترتاح من الهمّ والخوف.

احتملتْ أمّي رائحة زفري، واتّساخ ثيابي، احتملتْ عدّة الصيد التي أكدّسها في طرف الغرفة الضيّقة، وتحمّلت روائحها دون أن تتذمّر أو تقرف.

كانت، حين أقبل عليها حاملاً خير البحر، تفرح وتشكر الله الذي رزقني، وتدعوه أن يوسّع رزقي. أبسط الخير أمامها، تقلّبه بين يديها وهي سعيدة:

ـ هل اصطدتَ كلّ هذا؟

لا يغلبني الغرور ولا أكذب عليها:

ـ ليس كلّه يا أمّي، أنا فقط أعاون الصيّادين وأتعلّم منهم، وإن شاء الله أكبر وأصير مثلهم.

تستمرّ في تقليب السمك وتفحص خياشيمه وأنا أقول لها:

ـ اختاري ما تشائين منه والباقي أنزل به إلى السوق.

فتختار حصّتنا وحصّة أخرى تشير إليها وهي ترمقني بنظرة حنونة:

ـ وهذه لأمّ وسميّة، أوصلها لها قبل ذهابك إلى السوق.

أنفلتُ بفرحي لبيت الحبيبة... ثم إلى السوق، أبيع الرزق وأعود لأمّي حاملاً النقود لأملأ بها كفّيها.

هكذا قضيتُ صباي.. وسنوات شبابي قبل أن تغيب وسميّة.

* * *

بعد رحيلها كرهتُ البحر وخاصمته، وعملت في إحدى وزارات الدولة فرّاشًا يحمل صواني الشاي والقهوة وأكواب الماء، وأوراقًا لا أستوعب المكتوب فيها بسبب لغتي الضعيفة. لم أحصل على قدر من التعليم، كنت في كثير من الأيّام أهرب من المدرسة إلى البحر. لم أكن أدرك أنّني بالعلم أستطيع أن أحظى بوظيفة جيّدة مثل بعض أصحابي، ولم أفكّر أنّني بعلمي أصير رجلاً مُهمًّا يجعل الناس تنسى أنّني ابن مريوم الدلّالة، لكنّ الجهل قادني إلى البحر، وحبّي لوسميّة جعلني أهبُ حياتي له.

لكنّ خصامي لهذا الحبيب لم يستمرّ طويلاً. استبدّ بي الحنين الجارف فعدتُ أقطع المسافات إليه بعد انتهاء دوام العمل، أمارس هوايتي بالصيد، أصارع تقلّبات أمواجه، أمنحه الحبّ ويمنحني الخير.

الأيّام تتلاحق...

الشهور والسنوات تتراكض والعمر يمضي. وأمّي تكبر وتلحّ بدموعها ومن أجلها استسلمت ووجدتني يومًا زوجًا لهذه الشرسة.

* * *

يتحرّك في الطرّاد، يستلقي ويعتدل.. ينظر إلى البحر حزينًا، هل يشكو له همّه؟ يشكو زوجته اللعينة التي تكره زفره وصيده؟ أم يشكو البحر للبحر؟ يُؤنّبه، يعنّفه، يرفع سلاحًا ويذبحه؟ يمزّق وجهه ووجه موجاته موجة بعد موجة حتى يصير زبدها دمًا أحمر؟ هل هو قادر أن ينتقم من هذا الجبّار الهادر الذي فجعه تلك الليلة؟

أحراش ذاكرته مكتظّة بالصور.

ما الذي حدث تلك الليلة وكيف حدث؟

هل أنسى؟

هل أقدر أن أنسى والحادثة مخطوطة في ذاكرتي كأنّها حفر سكّين بلحم عصيب؟!

آآآآه ما أبشع ما حدث!

كانت قد أعطتني الوعد.. حملته كمن يحمل عندليبًا غاليًا ربّاه وعلّمه الغناء ويخشى أن يفرّ منه ولا يعود.

ما أعذب ذلك الوعد الذي ما حلمت أن يكون، ولم أصدّق أنّه سيولد! وعدٌ كالنور أضاء قلبي وجعلني كالمصعوق، كالمُخدّر.

انتابني غرور بأنّ وسميّة رغم كلّ الظروف ستجازف، وببراءتها وشوقها الذي انتفضت براعمه ستأتي حاملة لونها الأسمر وعينيها البرّاقتين وثغرها المُورّد. سترتمي معي على الشاطئ اللّاهث المشتاق، ستمنحني حنانها وحلو كلامها.

وأنا؟

ماذا سأقول لها؟ كيف سيكون الكلام بيننا بعد الغيبة التي كبرنا فيها؟

هل ستذكر وسميّة طريق البحر الذي غابت عنه منذ أن أزهر تفّاحها وأينعت ثماره؟

أنا لم أنس الطريق.. أعرفه خطوة خطوة.. أعرف حدود كلّ حجر فيه وكلّ نقشة كتبها الأطفال على الحيطان، حتى الكلمات البذيئة والشتائم، أعرف كلّ مكان تلوّث بروثٍ أو برماد المواقد، أعرف كم عدد الأبواب والشبابيك، أعرف كم نسمة تأتي ومتى تغادر، أعرف كلّ عاصفة غبار هاجت وماجت واستقرّ غبارها على سطح أو عريش، أعرف كم قطرة مطر نزفها الشتاء فدفعتها المزاريب إلى الشوارع لتكون بحيرات نلهو بمائها.

كلّ السنوات التي حرّموا عليّ المرور من شارعهم لم تُنسني شيئًا. كلّ وجوه الناس الساكنين أذكرها، فكيف لا أذكر وجه وسميّة الذي كنت أراه في صُدفٍ قليلة من وراء بوشيّتها التور،

كانت تغضّ البصر ثم تسرقه لتراني وأنا أقف بعيدًا أبتسم ولا شيء غير البسمة يحملها الهواء كقبلةٍ رشيقةٍ تستريح بعد المشوار على خدّها الأملس.

أخيرًا تفتّحت في قلبي أزاهير الأمل..

وسميّة أعطتني وعدًا... فهل تفي بوعدها؟

وهل يكون الموعد قريبًا؟

انتظرت..

انتظرت..

وانتظرت.

* * *

حفرتْ قدماي طريقًا إلى بيت وسميّة.. كنت إذا مشيت أغمض عينيّ وأحلم. وكانت خطوتي تعرف طريقها عبر المكان الذي شقّته وسط التراب، حتى العصافير اعتادت مشاويري وأكلت من فتات لهفي وشبعت.

القلق رفيقي في كلّ مرّة. والخوف من أن يلاحظ أحد تكرار مجيئي أو يفاجئني وأنا قريب من عتبة بابهم أبحث عن حجر غريب وضعته يد الحبيبة كما وعدتْ.

في كلّ مرّة كنت أمنّي النفس أن أجد العلامة، وأهبُ روحي أملاً لتفرح، وحين لا أجدها في المكان تصيبني الخيبة ويُكفّنني الحزن، فأغتاظ وأقرّر ألّا أحاول ثانية، فقد يكون وعدها مجرّد

هفوةٍ تسرّعت بها في لحظة اللقاء الذي تمّ بعد الغياب.

قد تكون نسيت أنّها التي ألقت في مياه حرماني حجرًا فحرّكت ركودها، هل خمدتْ رغبتها؟ ألا تريد أن تهدّئ مياه شوقي التي اصطخبت؟

أيّام مرّت...

أسبوع.. أسبوعان.. وأنا أتآكل بحيرتي وقلقي.

ماذا حدث يا ترى؟

وصل القلق بي إلى الحدّ الذي تصوّرت معه أشياء كثيرة، أرعب ما فيها أن تكون وسميّة مريضة.

كان لا بدّ أن أتحرّى، أن أطمئنّ، أن أسأل، ولا وسيلة لذلك غير أمّي التي قامت من رقدتها وهي لم تشف بعد لتحمل بضاعتها وتعمل طول النهار، فهل أصدّق أنّها لم تزر بيت وسميّة طيلة هذه المدّة؟

تردّدت أن أسألها سؤالاً مباشرًا. والنار المضطرمة داخل صدري تدفعني بكلّ قوّة أن أطفئها وأستشفّ من أمّي خبرًا.

ذات ليلة رطبة دنوتُ منها. كانت تخيط فتقًا في عباءتها المُغبرّة، تغرز الإبرة وتسلّها بحركة رشيقة سريعة، ثم تبُلّ بلسانها طرف بنانها لترطّب به القماش وتُعيد غرز الإبرة. ازددت قربًا منها فأرخت يدها ونبّهتني:

ـ ابتعد حتى لا تغزّك الإبرة.

آآه يا أمّي. . .

كانت تخاف عليّ من غزّة إبرة وهي لا تعلم أنّ حقلاً من الإبر نابتٌ تحت جلدي.

ابتسمتُ، ووضعت رأسي على كتفها ودغدغتها فضحكت:

ـ جوز يا عبد الله، لا تعطّلني.

ـ ميخالف.

ـ أريد أن أخلص من هالشقّ في العباءة.

ـ باكر تكمّلين خياطتها.

ـ باكر عندي شغل من طلعة الشمس.

زفرتُ:

ـ أفّ. . كلّ يوم شغل؟

أنّتْ أمّي أنّة خفيفة وقالت:

ـ رزقنا يا وليدي.

ـ لكنّه يأخذ كلّ وقتك، وأنا. . .

ألقت العباءة من يدها، تحسّستْ وجهي وقلبها يهلع:

ـ ما بك يا حبيبي؟ هل تشكو من شيء؟

مسحتُ على كفّها الحانية:

ـ ما فيني شيّ، لكنّي ما أشوفك وايد؟

ـ هل ينقصك شيء؟

ـ لأ . . . لكن أحبّ أشوفك و . . . أن . . .

ـ قلْ لا تستحِ .

ـ أريد أن تدلّليني .

ضحكتْ كثيرًا وحضنت رأسي إلى صدرها . شدّت عليه بضلوعها الناتئة وأحسستُ بقلبها هو الذي يكلّمني :

ـ صرتَ رجلاً . . والدلال للجهّال .

التصقتُ بها ونهنهتُ بصوتي كمن يبكي :

ـ أنا بعدي صغير .

ـ إذا صار عمر الولد (أربعتعش)، يصير رجّال .

ـ أنا أحبّ أن تدلّليني حتى لو كبرت . الناس تشوفك أكثر منّي . ليش ما تختصرين من هالبيوت؟

استفسرت :

ـ يعني كم بيت؟

عدّيتُ على أصابعي :

ـ بيت فلان بعيد عن بيتنا ، وبيت فلان عندهم خادم و . . . و . . .

قاطعتني :

ـ وبيت وسميّة بعد .

أمّي رائعة.. حنونة.. كأنّها أحسّت بما يعتلج داخل صدري. قالت:

ـ ها! أشوفك ما تسألني عنهم؟

تشجّعت:

ـ ما أخبارهم؟ ولهتُ على خالتي أمّ وسميّة.

قالت بعجالة:

ـ كلّهم بخير والحمد لله.

تلعثمتُ وأنا أخترع الكذبة:

ـ قبل يومين حلمتُ أنّ وسميّة مريضة.

انتفضت أمّي وتعوّذت:

ـ يا كافي الشرّ.. وسميّة بعافية وكأنّها البدر.

ـ يعني مو مريضة؟

ـ لأ.. لا تخاف عليها.

ضغطتْ على يدي لتزيد اطمئناني، لكنّ هذا هيّج غيظي على وسميّة.. ما دامت ليست مريضة فلم لم تفِ بوعدها؟ أيّ شيء يعابث عقلها؟ هل ندمتْ؟ هل رفضتْ فكرتي إلى الأبد؟ كيف أعرف؟ وكيف السبيل أن أصل ثانية إليها؟

آه... ليس غيرها... أمّي. هي التي تشفي لهيب النار الذي يأكل أغصان قلبي وأوراقه.

اشتدّ التصاقي بها، عابثتُ كفّها، قبّلتها:

ـ يُمّهْ... أكو أغراض لبيت وسميّة؟

ـ ليش تسأل؟

ـ أريد أن أريحك من المشوار وأوصّلها.

أمّي لم تكن لئيمة لكنّها تلأمنتْ عليّ هذه المرّة:

ـ هناك مشاوير كثيرة يا ليت تريّحني منها.

هي تريد أن تغيظني وتلعب بلهفتي. تدلّلتُ عليها أكثر:

ـ بس أنا ولهان على خالتي أمّ وسميّة.

وانتظرتُ أن تخرج الكلمة من فمها. انتظرتُ أن تمنحني طاقة تعوّضني بها عن أيّام القلق الطويلة.

دارت بعينيها في أنحاء الغرفة، استعرضت البقش المُلوّنة. سحبتْ نفسها فابتعد رأسي عن حضنها. قلّبت الأشياء ثم رفعت بقشة لا تجهل لونها وتطاريزها عيناي. التفتت إليّ وهي ما تزال مُقرفصة:

ـ هاك.. هذه بقشتهم، خذها باكر وسلّم عليهم.

هل تحرّكتُ من مكاني أم أنّ قوّة خارقة ركلتني نحو أمّي؟ كدتُ أهبط عليها بثقلي. أخذتُ البقشة بسرعة خاشيًا أن تعْدل أمّي عن رأيها.

حضنتُ البقشة إلى صدري، شممْتها، استعذبتُ الرائحة الحنونة التي ملأت عروقي ثم انزويت في فراشي وأنا أشعر بعينيْ

أمّي كعينيْ ذبابة تتحرّكان بكلّ اتّجاه وكأنّها تريد أن تلملم خيوط فرحي المنفرطة، وتحضن تنهّداتي وهي تُشفق عليّ.

عادت إلى مكانها وتكوّمتْ، تخيط بإبرتها وقد أحسستُ أنّ الإبر التي تحت جلدي قد تكسّرت رؤوسها وسقطتْ.

هو ذا الأمل.. أحضنه، أتوسّده، فكيف سأنام الليلة؟

أيّ جفن هذا الذي يشتهي أن ينام أو تهمد له شعرة؟

أيّ قلبٍ يستطيع أن يهدأ وتسكن طبوله؟

غدًا...

متى يأتي الغد؟...

هل سأراها؟...

أين أنت منّي يا وسميّة؟...

يا ليتك تأخذين بعض عذابي وتجرّبينه، لكنّك الآن نائمة، مرتاحة، أمّا عيناي فلن ترتاحا ولن تعرفا النوم حتى الغد. فلي موعد مع السعادة.

* * *

ـ ٨ ـ

صحوتُ قبل صياح الديك..

قبل الشمس..

قبل النسمة..

قبل أن يتنفّس تراب الطريق عبقه اليوميّ بعد ليلة نديّة..

صحوتُ قبل قلبي... قبل أمّي..

بدأتُ أتحرّك. ورغم حرصي أن تكون حركتي خفيفة، إلّا أنّ أمّي استفاقتْ. حكّت رأسها وتقلّبتْ، ثم استدارت نحوي:

ـ ها عبد الله! ما بك؟

ـ لا شيء، صحوتُ من النوم.

باستغراب ردّت أمّي:

ـ بسم الله، الشمس لم تطلع بعد.

ـ ستطلع بعد قليل.

قالت آمرة:

ـ ارجع نام، الله يهديك.

ضايقني أمرُ أمّي، لكنّني أدركت بأنّني تسرّعتُ في استيقاظي فركنت إلى فراشي ثانية، عيناي على النافذة أستعجل خصلة من الشمس لتقتنع أمّي أن النهار بدأ وتتركني أطير إلى حيث أشاء.

أخذتُ أعدّ عواميد الجندل المصفوفة بالسقف وأعدّ الشقوق. ثم أستعرض أشياء الغرفة المترامية هنا وهناك والوقت يمرّ طويلاً... مُملًّا... مُرًّا... حتى أضاءت الغرفة بولادة الشروق الذي سيزفّني إلى النور.

قفزت من الفراش، فتحت الباب، خرجت إلى بيت الخلاء، وحين عدتُ كانت أمّي تتّكئ برأسها على ذراعها. بادرتني:

ـ أشوفك اليوم مستعجل.

ـ النوم فارقني وملّيت من الفراش.

ـ ألن تفكّ ريقك وتأكل؟

ـ ما أشتهي.

ـ شويّة حليب مع (بقصم)[1].

ـ لا أشعر بجوع.

تنهّدت أمّي، هل تراها تُدرك أنّ فرحي قد أشبعني هذا الصباح؟

---

(١) الكعك.

قبّلت رأسها وقبل أن أبتعد سحرني دعاؤها:

ـ الله يريّح قلبك يا حبّة قلبي.

خرجتُ لا ألوي على شيء، البقشة في يدي، خطوتي سريعة، ودقّات قلبي تعزف ألحان طبول ودفوف متشابكة وأنا أسبح تارة وتارة أطير، والشارع طويل.. طويل.

لماذا يطول الزمن والطريق حين نكون في طريقنا إلى السعادة؟ أعرف أنّ طريق العودة أقصر ولن يعرقلني شيء كهذه الحجارة التي تعترض خطوتي، فأقذف كبيرها وأدوس على الصغير منها وأفتّته فيصرخ، لكنّه حين يسمع دقّات قلبي يتهامس ويعذرني.

عند رأس الشارع وقفتُ، استندتُ إلى الحائط أريد أن أشحن نفسي وآخذ نفسًا طويلاً لأريح صدري، وانتظرتُ لأعطي وسميّة فرصة أكبر لتصحو وتتنفّس وتستقبلني مرتاحة باسمة.

كان غيظي منها يختلط بشوقي. ماذا سأقول لها؟ هل أعنّفها أم أعاتبها عتابًا رقيقًا يليق برقّتها! أم أنسى غيظي وأهديها دفء سلامي وعذوبة شوقي؟

سمعتُ خطوة من ورائي، استدرتُ فرأيتُ أبو يوسف القلّاف يحمل (بشته)[1] تحت إبطه، حين رآني خرج سؤاله برنّة استغراب:

ـ عبد الله! أنت هنا في مثل هذا الوقت؟

ارتبك الجواب.. تحوْصَل صوتي داخل حنجرتي قبل أن يخرج متقطّعًا:

---

(١) العباءة التي يلبسها الرجال.

ـ أنا . . أم . . أمّي هذي . . أغ . . أغرا . . .

نظر إلى يدي التي تحمل البقشة وساعدني سؤاله :

ـ لمن البقشة؟

ـ لبيت عمّي أبو فهد . . تنبّهتُ أنّني أقول أمّ فهد لأوّل مرّة .

ـ زين . . زين . . أمّك أرسلتك بها ، بس يا عبد الله . .

و . . ارتعدت . .

ـ بس شنو عمّي أبو يوسف؟

ربّتَ على كتفي فخفّتْ رعدتي :

ـ أنا أقول ليس بهذا الشكل تساعد أمّك ، صرت رجلاً ويجب أن تستقرّ على مهنة .

دافعتُ عن مهنتي :

ـ يا عمّي بو يوسف . أنا أدخل البحر . أشيل وأحطّ وأكسب .

ألوى شفته وأخرج لسانه :

ـ هذي مشكلتك ، حبّك للبحر والزفر ، وأمّك المسكينة تريد لك مهنة ثابتة .

ـ أدري . . طلبت منّي أن أشتغل مع أبو جاسم الحدّاد .

ابتسم :

ـ زين . . وليش ما اشتغلت؟

ـ لا أطيق صوت الحديد.

ـ زين اشتغل معي، أمّك طلبت منّي أن تتعلّم القلافة.

ـ يا عمّي أنا لا أحبّ القلافة.

غضب:

ـ هذا لا تحبّه وهذا لا تحبّه، تتشرّط؟ ألا تستحي؟ يجب أن تتعلّم صنعة.

قلت بصوت مكظوم:

ـ إن شاء الله سأتعلّم الصيد.

حين حدّق بي ساخرًا تابعت:

ـ الشغل في مكان أحبّه يفيدني أكثر.

ـ وأمّك! هل يعجبها هذا؟

ـ حين تأكّدت أنّني لا أستغني عن البحر وافقت.

هزّ رأسه، وربّتَ على كتفي مرّتين وقال:

ـ على كيفك.. الله يوفّقك و(يخلّيك لأمّك).

قالها بسخرية وابتعد.

* * *

هل سيوفّقني الله وأراها؟..

يا ليت..

حديثي مع أبو يوسف رغم ثقله خفّف من طول الوقت. وحين غادر ارتحت. انتظرته حتى اختفى من الشارع وبدأت أسحب خطوتي، أطير بها وأصل إلى بيت وسميّة الذي كنت أراه يفتح لي ذراعيه، يناديني ويستعجلني.

وقفت عند الباب، الحيرة تتقاذفني، يدي ترتفع ثم تعود، ينهش قلبي فرح يمتزج بالخوف.. وبالقلق.

هل سأراها؟..

باب الجنّة أمامي.. هل يؤمن بالحبّ الذي أحمله فيتكرّم ويسمح لي بالدخول؟

طرقت مرّة... مرّتين.

انبلج النور أخيرًا وأطلّ وجهها الملائكيّ:

شهقتْ، وشعّ بريق في وجهها كلّه:

ـ عبد الله؟!

بصوت كالهمس:

ـ إيه عبد الله.

كان في صوتي رنّة عتاب وكأنّني أردت أن أقول لها:

ـ (إيه.. عبد الله الذي وعدتِه ونسيتِه. عبد الله الذي ينام على الشوك ولا ترحمينه، عبد الله الذي توسّل لأمّه أن يأتي ليراكِ، ويسألكِ، ويعاتبكِ، أين وعدك؟).

لمحَت السؤال في عينيّ، ارتخى رمشاها:

ـ أهلاً عبد الله.

حمّلتُ صوتي كلّ الحزن:

ـ نسيتِ عبد الله؟

رفعت كفّها:

ـ لا والله، بس.. بس...

بس ماذا؟ هل ندمتِ وغيّرتِ رأيكِ؟

ـ لأ... لأ.

ـ إذن؟

قالت والصدق معجون بصوتها:

ـ أنا خايفة.. خايفة.

ـ وأنا.. ألا تدرين كيف مرّت عليّ الأسابيع؟ أنا لا أهمّك يا وسميّة.

دافعت عن نفسها:

ـ أنت تهمّني لكنّي أفكّر.. وأفكّر، ساعة أوافق، وساعة أتردّد لأنّي خايفة.

ـ قلتُ لك لا تخافي.. سنجلس على البحر شويّة.. ولن تتأخّري.

تنهّدت:

ـ اليوم كنت أفكّر أن أضع لك الحجر، عمرك أطول من

عمري، ها أنت جئت ورأيتك.

ـ ماذا تعنين؟ هل هذا يكفيكِ؟

ضحكت:

ـ لو لم تأتِ كنتُ غيّرتُ رأيي.

بلهفة سألتها:

ـ وألحين؟

ـ سأضع الحجر.

ـ متى؟

ـ خلاص.. ليش الحجر؟ أنت معي وتسمعني.

غير مصدّق:

ـ قصدكِ الليلة؟

هزّت رأسها بالإيجاب وهي تبتسم ملْء شفتيها.

شكّي يغلبني ويُفسدُ عليّ:

ـ هل تمزحين؟ أم تقولين هذا لمجرّد أن تُطمئنيني؟

ـ لا والله. الليلة سيكون الوقت مناسبًا.

ـ خير إن شاء الله؟

ـ أمّي اليوم ستزور بعض الأهل وأكيد سترجع تعبانة، سأهمّزها حتى تنعس، وحين تنام...

ـ ستخرجين.

ـ إن شاء الله.

ـ لن تخافي؟

ـ ما أدري، يمكن.

ـ ستكونين شجاعة؟

ـ ما أدري، يمكن.

ـ لا تصيرين جبانة.

ـ ومتى كانت البنت شجاعة؟ حتى أنتم الكبار تخافون من الكبار.

ـ الخوف يولد معنا، لكنّنا نحاول.

ـ وأنا لأوّل مرّة سأحاول، ولكن خايفة يشوفني أحد. والله أهلي يقطعون رأسي.

طمأنتها:

تعوّذي من إبليس.. لن يراك أحد، ثم من سيعرفك؟

ـ ما أدري.. يمكن.

ـ البنات والحريم تحت العباءات والبوشيّات متشابهات.

ـ يصير خير.

ـ يعني أنتظرك؟

ـ . . .

ـ قولي.

ـ انتظر. . ولا تقف بعيدًا حتى أراك، أنا لا أعرف الطريق.

ـ صار. . صار.

سلّمتها البقشة، لامست كفّي المثقلة بالشوق كفّها، ضغطت عليها، لم تسحبها، أرخت رمشيها وتورّد وجهها، شعرتُ بها ترتعد كالسعفة، أشفقتُ عليها وسحبتُ كفّي. ودّعتها وعيناي تتوسّلانها أن لا تخذلني، وهي تهزّ رأسها وتؤكّد وعدها.

* * *

وعدها الثاني. . .

هل ستفي به أم يهزمها مارد الخوف؟

مسكينة وسميّة، ككلّ البنات تخاف. والله معها حقّ، فلِمَ ألومها؟

هل تجرؤ صبيّة لم تكمل عامها الثاني عشر أن تخرج وحدها؟

ولأيّ سبب؟ لتقابل شابًّا لا يرتقي لمكانتها. فهي ابنة الحسب والنسب، وهو ابن مريوم الدلّالة.

هل ينتصر قلبها على الخوف؟ إنّها ترغب لكنّها لا تتجاهل تقاليدنا وظروف مجتمعنا. يجب ألّا أغضب منها، إن استطاعت الليلة فسأكون أسعد رجل في الدنيا، وإن لم تستطع فيجب أن أعذرها وأنتظر وعدًا آخر، وآخر. وإلى أن يأتي الليل سأنسى الوعد، لن أثقل على نفسي بالتفكير والتخمين. لن أشحن قلبي بالأمل حتى لا تفجعه لحظة الخيبة. ولن أقتل فيه الحلم حتى يظلّ مُرفرفًا.

والليلة حلم. . .

قد يأتي وقد لا يأتي. . لكنّ السباحة في الأحلام نوع من أنواع العادة، وكذلك الانتظار.

* * *

حملتُ الوعد رغم شكّي فيه ومشيت. كان شيء في داخلي يريد إقناعي بقوّة أنّها ستفعل، وشيء آخر يُصادر هذا القويّ، ويأمرني ألّا أفرد كلّ أشرعتي مرّة واحدة.

تركتُ الأفكار تتلاعب برأسي وأنا أقطع المسافة، أنظر إلى البيوت المتلاصقة والشبابيك، أتمنّى لو تنام منذ اللحظة وأن تظلّ الشبابيك مغلقة حتى لا تطلّ منها أيّ عين وتلمح وسميّة. صادفت قططًا تموء وهي تبحث عن رزقها الصباحيّ فتمنّيت أن تجد كلّ ما تشتهي وترحل عن الشارع، عن الحيّ كلّه حتى لا تموء في الليل وتدلّ على وسميّة. حتى العصافير التي حطّت على أسطح البيوت ومرازيمها وأسوارها تمنّيتها لو تسافر إلى مكان بعيد تحمل زقزقتها ورفرفة أجنحتها ولا تعود إلّا حين تعود وسميّة إلى بيتها آمنة بعد اللقاء.

ها هو الأمل يعابثني ثانية. . الأمل أكبر من أن تخمد جذوته في الشكّ والقلق. هو ذا يستقيم في قلبي وفي عقلي فأرسم للموعد كلّ خطواته، أزيّنها، أنسّقها، أحسب حسابًا لكلّ شيء إلّا الكلام.

لم أقرّر ماذا سأقول، الكلام يفرّ فلا أصطاده وإحساس بالفرح يجلوه عن رأسي ويتجاذبني، يمطّني ويجعلني أحسّ بقامتي تطول،

ورأسي يكبر ويتحرّك، تشتعل فيه الكلمات الخامدة وتلوح نارها من البعيد.

أسمع صوت أمّي يتردّد صداه في ذهني:

(هي ابنة أغنياء، وأنت ابن مريوم الدلّالة، هي ابنة الحسب والنسب، وأنت مجرّد يتيم ابن رجل لا تذكر وجهه).

لكنّ وعد وسميّة يلحّ ويُبعد صوت أمّي.

آه لو كانت أمّي تدري الآن أنّ بنت الأغنياء تحمل في قلبها حبًّا لابن الفقير، وأنّها ستنتهز فرصة غياب صُقور بيتها لتقرّر في لحظة أن تتحدّى كلّ شيء وتتواصل مع زمن الطفولة الذي أصرّوا أن يُعطوه سنوات أكبر من عمره.

ها هو عمر الطفولة المُمتدّ يحاول..

يتردّد، ثم يحاول..

حين لمحتْ وسميّة حزني وعتابي قرّرت ألّا تخذلني. هي مثلي إذن تشتاق أن تفرّ من خلف الأسوار العالية، وتجرّب لحظة تتحرّر فيها وتتنفّس هواءً جديدًا منعشًا.

* * *

نزعتُ عنّي رائحة أسبوع كامل. أغرقتُ جسدي في الماء وفركت شعري حتى أحسستُ بتموّجاته تنسدل إلى عنقي.

طرقتْ أمّي باب الحمّام أكثر من مرّة:

ـ ماذا تفعل يا عبد الله؟

ـ أستحمّ.

ـ كلّ هذا الوقت وكأنّك (مِعْرِسْ)؟

مِعْرِسْ!؟

طرقت الكلمة أذني ورفرف قلبي.

أجل... هذه الليلة أنا عريس.

دقّتْ أمّي الباب ثانية بإلحاح أشدّ:

ـ عجّل يا عبد الله لتذهب إلى الخبّاز.

كان عليّ قبل أن أذهب إلى الموعد أن أحضر الخبز لأمّي، وأن أتعشّى معها، وأن أنتظرها حتى تغفو. ثم أخرج.

خرجتُ من الحمّام، لمحتْ أمّي احمرار وجهي:

ـ كلّ هذا (سبوح)؟

ـ جسمي وسخ من البحر والرمل.

ـ كأنّك سلخت جلد وجهك.

ـ لا... لكنّي غسلته بالماء الحارّ.

ـ عوافي يا بعد عيني.

قالتها أمّي بصدق وبحبّ.

تُرى!! لو كانت تعلم أنّني أفعل هذا من أجل موعد لا يمكن أن ترضى عنه، هل كانت ستقول عوافي ويا بعد عيني!؟

سحبتُ دشداشتي النظيفة التي لبستها ذلك اليوم الذي ذهبتُ فيه إلى بيت وسميّة. لاحظت أمّي واستغربت:

ـ ليش تلبس الدشداشة الجديدة؟

ـ اشتهيت ألبسها.

ـ عليك بالعافية.

بحثتُ عن عطور أمّي. تعطّرتُ، سحبتُ مشطها الخشبيّ ومشّطتُ شعري المُبلّل، وأمّي تراقب حركاتي والدهشة تملأ عينيها. وحين انتهيت من تزيين نفسي سألتني:

ـ لم كلّ هذا (التزكرت)[1]؟

لقد فضحتني لهفتي واهتمامي بنفسي، وكان لا بدّ من اختراع كذبة غير ضارّة:

ـ أنوي الخروج بعد العشاء.

ـ إلى أين؟

ـ تواعدتُ مع بعض الأصحاب لنتمشّى على البحر وقد أتأخّر.

أحسستُ بشهقة قلبها وبغرابة تنفر من صوتها:

ـ في هذا الليل؟

ـ أشعر بضيق في صدري، قلت أشوف ربعي وأرفّه عن روحي.

---

(١) زيادة في التأنّق.

ـ الناس ينامون وأنت. . .

ـ عيناي الليلة لن تناما.

ارتجف صوتها:

ـ عسى ما شرّ؟ عندك مشكلة؟

ـ لا. . يُمّه.

ـ إذن لماذا تخرج؟ أنا أخاف عليك من الليل ومن البحر.

ـ لا تخافين يُمّه. . أنا كبرت. وتعرفين أنّ البحر صديقي وحبيبي.

في داخلي كان الخوف يعصف. هل أتجاهل هذا الإحساس؟

إنّها مغامرة كبيرة. وسميّة ابنة الحسب والنسب ستخرج الليلة معي، أنا ابن مريوم الدلّالة.

اشهدي يا دنيا. . .

ستخرج معي وسميّة تحت ستر الليل إلى البحر. وستشمّ رائحته، تسمع همساته، وترتاح على رمله.

وأمّها. . .؟

ستكون نائمة. .

وعيون الناس. . .؟

كلّها ستنام. . ستهمد بعد صلاة العشاء. كلّ شيء سيهمد إلّا صوت الصراصير في الشقوق، أو شجار الفئران عند زوايا البيوت حيث تتراكم القمامة.

وعينا أمّي. . .؟

هل تنام بعد حوارنا قبل خروجي؟

ـ يا عبد الله. . إن كنت متضايقًا من شيء فأخبرني.

ـ أقسمُ يا أمّي أن لا شيء يضايقني.

ألحّتْ:

ـ إن كان ضايق صدرك اقعد معي نسهر وأحكي لك عن سوالف أبوك ونستأنس.

ـ البحر يُسلّيني، تعرفين هذا.

زعلتْ وعاتبتْ:

ـ تُفضّل البحر على مجالسة أمّك.

خرقت كلماتها قلبي، أشفقت عليها، اقتربت منها وأحطتها بذراعيّ:

ـ يا أمّي. . أحبّ أن أجلس معك، لكنّك تعبانة بعد نهار طويل وأريدك أن ترتاحي.

ـ أنت تدري أنّني لا أرتاح وأنت بعيد عنّي.

ـ لن أكون بعيدًا.

ـ سوف أسهر وأنتظرك.

أصابني انزعاج:

ـ أرجوك يا أمّي لا تنتظريني.

ـ والعشاء؟

ـ سأحضر الخبز وأتعشّى معك ثم أذهب.

ارتاحت قليلاً لكنّها سألت:

ـ لن تطيل السهر أليس كذلك؟

ـ نعم لن أطيل السهر.

هل سأنسى الوقت حين ألتقي وسميّة؟

آه يا وسميّة...

وحدنا الليلة سنسهر..

واشهدي يا دنيا.

* * *

ـ ٩ ـ

ارتدى الليل دثاره الأسود. كانت الليلة وادعة صافية، نامت كلّ العيون وبقيتْ عيون النجوم تحرس مليكها القمر، وتهدي إلى الأرض نورها الشفّاف كأنّها تريد أن ترسم لي طريقي وأنا أمشي. يُرابط كثير من الخوف بداخلي ويمتزج بإحساس من الفرح واللهفة.

مشيتُ هادئًا أخشى أن يُسمع صدى خطواتي الخفيفة، أو أن أدوس على ذيل هرّة فتزعق الدنيا معها. أتأكّد من أنّ كلّ النوافذ مغلقة والأنوار مطفأة، لا عين ترى.. ولا أذن تسمع.. نسيم خفيف يتحرّش ببعض الأوراق المترامية هنا وهناك فتطير طيرانًا خفيفًا ثم تعود إلى حضن أمّها الأرض و... قلبي يطير ولا يستقرّ، والسؤال المُرتعش:

(هل ستفي وسميّة بوعدها؟ هل نقيم عرسًا نستعيد فيه ذكريات الطفولة التي غابت؟).

لقد استنزفني التفكير طوال النهار، وتجاذبتني المخاوف

وهزّتني أشكال المشاعر المتضاربة، فهل بعد هذا يخيب الوعد والأمل؟

وصلت إلى رأس الشارع، لم تكن الرجفة تفارقني، ولسعة الهواء تصفع كلّ بقعة في جسدي، أنتفض فجأة ثم أرتخي وأعلم أنّ الرجفة ستعود فأستعدّ لها، والسؤال الملحاح أبشع من الرعدة وهو يهاجم عقلي:

(هل سأجدها بانتظاري؟)..

الزمن بطيء...

ثعبان يسحق صبري تحت جلده الأملس، فلا أجد ما أتمسّك به وأوقفه. قلبي طبول تزعق وعيناي تمارسان التحديق في صمت الليل.

أتلفّت كلّ لحظة لأراقب الشارع خوفًا أن يأتي أحد ويفسد عليّ اللحظة؟ هل ينبثق من الأرض جنّيٌّ ويُطيح بصفاء الليلة؟

عيناي تدوران ثم تحطّان على بيتهم... على بابهم.. أحسب اللحظات متى تُطلّ؟ متى أرى وجهها؟ متى يعزف لي العمر لحن السعادة؟

طويلة.. طويلة.. لحظات الانتظار. لكنّ الأمل وحده مقصٌّ لأوصالها، والعين مُبحرة لا يوقف رحيلها إلى باب البيت حتى ولو رفرفة جناح ذبابة شاردة.

صوت...

و . . .

هي . . . وسميّة .

أحسّها . . أراها في عباءتها الحرير ملفوفة كالغصن الخجول . . طيرًا يفرّ من قفصه يدنو . . . يدنو . . . و . . . يصل .

أمسكتُ بيدها المُرتجفة . . شددتُ عليها بقوّة . . خشيتُ أن تغيّر رأيها وتفرّ منّي ثانية . أن تخونها أعصابها فتقتل أمنيتها التي جازفتْ لتحقّقها . أمنية تؤطّرها أسيجة الخوف وشيء اسمه الحرام وآخر اسمه . . . فهد .

* * *

لم أصدّق رغم أنّ عينيّ تابعتاها منذ لحظة خروجها من باب بيتهم حتى وصلت إلى مكاني، وقبضتُ على يدها العصفورة خشية أن تطير .

هي فعلتْ ما فعلته . . شدّت على يدي كأنّها تخشى لو أنّها تركتها أن تتوه في الليل المُعتم فتلتهمها العيون الشرسة .

أحسستُ برعشتها تعانق رعشتي . . . همست :

ـ ها وسميّة . . خايفة؟

ـ آه .

ضغطتُ على كفّها مُشفقًا عليها :

ـ لا تخافي . . أنا معك .

قالت وقد نبع من صوتها لحنٌ كالأسف :

ـ لا أدري كيف تجرّأتُ وجئت.

ـ ندمانة؟

نفت لتريحني:

ـ لا.. لكن...

لم أردّ. وهي انتظرت أن تسمع منّي كلمة فلم أفعل. قالت:

ـ أخاف أن يرانا أحد.

ابتسمتُ لها ولا أدري إن كان الليل قد كشف لها ابتسامتي:

ـ لا تخافي.. لن يرانا إلّا البحر، ألستِ مُشتاقة له؟

رفرف ابتهاجٌ في صوتها:

ـ طبعًا مشتاقة.

ـ وهو أيضًا مشتاق لكِ. سترينه الآن.

ـ وسأغطس بقدميّ فيه.

ـ ستنبتين فيه لؤلؤة، وتمتدّين فوقه سحابة.

ـ لا أكاد أصدّق أنّني سأراه.

ـ صدّقي.. إنّه ينتظرنا الليلة.

لم نتحرّك..

ظللنا عند الجدار ننتظر اللحظة التي تواتينا فيها الشجاعة فنبدأ الرحلة.

استدارتْ نحوي:

ـ هل سنلعب في الرمل؟

ـ طبعًا.. وسنبني بيتًا.

ـ ونملأه خرافًا وأشجارًا.

زغرد قلبي.. تحرّك وواتته الشجاعة وكأنّني عدت ذلك الطفل:

ـ هيّا يا وسميّة ستتحرّك الآن.

مشينا..

أرادت أن تواصل الحديث الذي انقطع:

ـ هل تعرف كيف يصيدون السمك؟

قلت بأسف:

ـ لا.

تنهّدت نهدة كأنّها زفرة فتداركتُ:

ـ لكنّني أتعلّم، وأخرج كلّ يوم مع الصيّادين.

ـ لأنّك تحبّ البحر ستحبّ الصيد.

واصلنا خطونا وإلحاحها يتواصل:

ـ تعلّم يا عبد الله.. تعلّم. تراني أحبّ السمك.

أكّدْتُ لها وكنت أقصد هذا:

ـ من أجلك سأتعلّم.. سأصيد كلّ أسماك البحر وأرميها تحت قدميك فتختارين منها ما تشائين.

ضحكتْ ضحكة ناعمة أحسستها تلبط بقلبي مثل سمكة (ميد)[1].

ـ أريد سمكة واحدة ملوّنة.

ـ سأجدها.

ـ وتشبهني.

ـ سأجدها.

ـ وتحبّك مثلي.

همزتُ كفّي المُستسلمة بين أناملها فانتعشت وقلت:

ـ لا.. لن تحبّني سمكة.. ولا إنسيّة.. ولا جنّيّة مثل حبّك.

غمرتني بحنان كفّها الذائبة كأنّها تودّ لو تصير فعلاً سمكة وترتاح في حضني.

* * *

انسللنا عبر الليل.. لا أحد يسمع خطواتنا. وحين بلغنا نهاية الشارع همستُ لها:

ـ سأسبقُكِ الآن.

ـ أخاف.

---

(١) الميد: نوع من السمك الصغير.

ـ لا تخافي.. تشجّعي.

ـ ستتركني وحدي.

ـ لن أتركك، سأسبقُكِ بضع خطوات فقط.

ـ أنا خايفة يا عبد الله.

أشفقتُ عليها.. أوجعني قلبي.. ولكن كان لا بدّ أن نتباعد، أنا يعرفني أهل الحيّ أمّا هي فلن يعرفها أحد وهي تحت عباءتها. ولو شكّ بنا أحد فسأكذب وأقول بأنّها واحدة ممّن يمتهنّ بيع المتعة. لقد صرتُ شابًّا بالغًا ولن يلومني أحد. كثير من الرجال يفعلون ذلك. كنت ألمح بعضهم يدلف إلى البيوت الخاصّة بالمهنة تفوح منهم شهوة الرغبة وأحلام اللقاء بجسد امرأة.

تقدّمتها...

حاولتُ سحب يدي من يدها وهي تحاول أن تبقيها لكنّني استطعت الإفلات منها فأخرجتْ نهدة مُرتعشة.

مشيتُ وهي تتبعني تفصل بيننا خطوات. الشارع الوديع يتهدّل إلى البحر، المسجد قابع عند مفترق الطريق ساكن هو الآخر، هل تُراه غاضبًا منّا؟

القطط والكلاب صامتة تتراصّ حول الحوائط وتتمدّد كأنّها تستحمّ تحت شمس دافئة. حتى أوراق الطريق وعُلب معجون الطماطم الفارغة المبعوجة ساكنة تمامًا كسكون الشجرة في بيت وسميّة، إنّها بالتأكيد لم تصدر حفيفها ولم تسمح لورقة منها أن تسقط حتى لا يوقظ الصوت أمّ وسميّة التي تنام هادئة لا يتلاعب

في ذهنها شكّ، ولا يدور في خلدها سؤال.

انحدرنا إلى البحر...

هل هو البحر نفسه؟ أم أنّه من أجلنا اغتسل وأرخى موجه وابتلع هديره؟

آآه... عطشان يا بحر الهوى، ولهان يا بحر الهوى.

ها هو ذا في حضن الليل.. طفلٌ كبير تتثاءب أصدافه وأعشابه على الشاطئ فتصير مثل عقود تحيط بعنقه، وأساور تزيّن معصميه، هو ذا يفرح وينتعش ويرتجف رجفة حنونة كأنّه يُحيّينا، كأنّ له ألف ذراع تمتدّ لتحتوينا وتهدّئ من روعنا، كأنّ ثغره الضاحك يزفّ إلينا زغرودة كتمها سنوات بانتظار ليلة زفاف تأخّرت عن موعدها.

على الشاطئ ترتخي صخرة كبيرة عندما يحدث المَدُّ تصير شقوقها بيوتًا للأسماك الصغيرة والقباقب، وحين ينحسر الماء تظلّ مبلّلة بانتظار حبيبين أو عصفورين تائهين.

وكنّا العصفورين... الحبيبين... زففنا إليه نفسينا. ارتمينا إليه عطاشى لمائه، جياعًا لأسماكه، ولهانين لرائحة زفره، كنّا نحتاج لحظة من الحرّيّة بعد هذا الفراق. أردنا أن نختبئ عن العيون وحتى عن النسمة خشية أن تسرق عطرنا وتحوّله ريحًا غاضبة تهيجُ وتدقّ الأبواب فتصحو كلّ العيون وتصير كلاب صيد تتعقّب الرائحة وتجدنا.

انزوينا قرب الصخرة.. وعلى الرمل الأسمر المبلّل استراح جسدانا المرتعشان. لم تجرؤ نظراتنا على التلاقي، كأنّ أحدنا

يخجل من الآخر أو لا يصدّق أنّه سيرى الآخر.

بدأت يدانا تداعبان الرمل.. تلاقت كفّانا، تعانقت الأصابع.. واضطربت دماؤنا. جداول شعرها الأسود تتماوج بين أصابعي، وبعضها يداعبه نسيم البحر فيخفي عنّي بريق عينيها. أمدّ يدي وأزيح الشعر برقّة حتى لا أخدش جبينها.

رفعتْ وجهها إليّ، غرستُ نظرتي في العينين الزائغتين الرائعتين. أحسستُ همسًا خجولاً كالنشيد ينطق بصمتهما ويقول:

(أحبّك يا عبد الله).

شحنتُ كلّ الحبّ الذي في قلبي ليتفجّر نظرة تنطق وتردّ على الأنشودة: (أحبّك يا وسميّة).

أرخينا بصرنا وعدنا نعابث الرمل. سألتها:

ـ أما زلت خائفة؟

تنبّهتْ:

ـ ها!.. شويّة.

ـ وأنت معي تخافين؟

ـ معك لا أخاف لكنّ الخوف موجود.

شجّعتها:

ـ هيّا.. خلّينا ننسى الخوف ونبني بيتًا.

جمعنا كومة من الرمل المبلّل. قالت:

ـ أريده بيتًا صغيرًا يا عبد الله.

ـ لا.. أريده كبيرًا.

قالت معترضة:

ـ ليش كبير؟ إحنا بس اثنين.

ذكّرتها:

ـ والأولاد؟

ـ ...

كأنّها فوجئت. لم تتوقّع أن أكون صريحًا إلى هذا الحدّ، ربّما تحسبها لعبة وحسب. بيت من الرمل نبنيه ثم بضربة يد نهدم جدرانه وآماله. لكنّها عرفت أنّني أقصد بيتًا حقيقيًّا له جدران وأبواب ونوافذ وبه أولاد.

لم تنطق فأكملتُ:

ـ أنا أريد كثيرًا من الأولاد والبنات.

ـ واي!! من وين نجيب لهم أسامي؟

ـ سأسمّي كلّ البنات وسميّة.

ضحكت والسعادة ترقص في ضحكتها:

ـ والأولاد هل تسمّيهم وسميّة أيضًا؟

ـ لأ.. الأولاد أنت تسمّينهم.

ـ أنا؟

ـ طبعًا . . الأولاد لكِ أنتِ . . والبنات لي أنا .

هزّت رأسها :

ـ إذن سأسمّيهم كلّهم عبد الله .

ـ موافق . . وسميّة وعبد الله يعودون جميعًا منّا ، يكبرون ويتزوّجون ويسمّون كلّ أولادهم وسميّة وعبد الله ، وكلّ عبد الله يحبّ وسميّة و . . .

قاطعتني :

ـ وكلّ وسميّة تحبّ عبد الله .

جمعنا الحصى الصغيرة ، جمعنا الودع وبعض الأخشاب المتناثرة وبدأنا نبني البيت ، نوزّع الحجرات ، هذه لنا ، وتلك للبنات ، وهذه للأولاد ، وغرفة الجلوس ، وأخرى للطعام ، والمطبخ وبيوت الخلاء . ثم أخذنا عصا صغيرة ولففنا على رأسها بعض الأعشاب وغرسناها في وسط الحوش .

قالت وسميّة :

ـ الله يا سلام ستكون شجرة (كنار)[1] .

اعترضتُ :

ـ لأ . . أريدها نخلة .

غضبتْ :

---

(١) الكنار : النبق .

ـ الأولاد يحبّون الكنار.

حاولتُ إقناعها:

ـ لكنّ النخلة في البيت بركة، والتمر أحسن.

استسلمتْ بحنان:

ـ كما تحبّ، المهمّ أنّها شجرة نرتاح تحت ظلّها.

ـ ويلعب الأولاد تحتها في الليالي المقمرة.

ـ آآه يا عبد الله.. تشوّقني لهذا البيت.

فرحت:

ـ صحيح يا وسميّة تتشوّقين لهذا البيت؟

أطرقتْ.. طال صمتها وأنا أتأمّل وجهها الصافي.

تُرى!! بِمَ تفكّر؟ وما الذي يخالج نفسها الطاهرة؟

ـ وسميّة؟

أفاقت من شرودها:

ـ ها..

ـ كيف رضيتِ أن تأتي معي؟

ارتعشتْ.. عامتْ صفرة خجل على وجهها، باغتها السؤال الجريء، تصوّرت أنّني أتّهمها بالخروج عن المألوف، لمعت في عينيها شرارة ندم فشعرتُ أنّني جرحتها وتداركت:

ـ أقصد. هل كنت متشوّقة لرؤيتي والحديث معي؟

ارتاح وجهها، ابتسمتْ وهزّت رأسها موافقة.

ـ يعني كنت مثلي تتمنّين أن نتلاقى؟

ـ طبعًا تمنّيت.

ـ وتتمنّين أن يكون لنا بيت؟

ـ أتمنّى يا عبد الله.

ـ وأولاد؟

ـ طبعًا.. طبعًا.

تنهّدتْ.. وأدركت سرّ نهدتها:

ـ آه يا وسميّة.. لو كان أبوك وأخوك هنا لما حقّقنا هذه الجلسة.

ـ أنا أخاف منهما، خاصّة فهد.

ـ كلّ البنات يخفن من الأبّهات والإخوان.

ـ أنتم الأولاد أحسن منّا. لا تخافون.

ضحكتُ هازئًا:

ـ من قال لك هذا؟ أنا مثلاً أخاف من أخيك فهد.

ـ ليش؟

ـ لأنّه أخوك، وهو غنيّ والأغنياء لا يحبّون أولاد الفقراء.

فاجأها ما قلته، ربّما لم يخطر ببالها أن نثير يومًا مثل هذه القضيّة، وكأنّها نسيت في غمرة اللحظة أنّها ابنة أغنياء وأنا ابن فقراء.

ـ ما هذا الذي تقوله يا عبد الله؟

ـ أقول الحقيقة، أنتم أغنياء وأنا فقير.

ـ لم أفكّر بهذا أبدًا.

ـ أدري أنّك لم تفكّري، لكنّ أهلك والناس يفكّرون.

ـ ما لنا وللناس؟

ـ كيف؟ نحن نعيش معهم، إحنا لنا حالنا.. والأغنياء لهم حالهم.

ـ أنت تقسو عليّ وعلى أهلي.

ـ أنا لا أقسو.. الدنيا هي التي تقسو عليّ وعليك.

ـ لِمَ تتصوّر هذا؟

ـ ليس تصوّرًا. أعطيك مثالاً. تصوّري أنّني أجيء أنا.. ابن مريوم الدلّالة وأطرق باب بيتكم وأقول لأبيك أريد أن أتزوّج ابنتك.

فاح الحزن من وجهها وارتجفت:

ـ ماذا تقول؟

تشجّعتُ رغم غضبها:

ـ أقول.. ماذا لو أردتُ أن أتزوّجك؟

ـ آآآآه...

ـ هل سيرضى أبوك.. وأمّك.. وأخوك فهد؟

ـ أمّي تحبّك، وأبي و...

ـ لا يكفي الحبّ. ماذا عن الخوف من الناس؟

ـ لا يهمّ إذا أمّي وأبي راضيان.

ـ من قال لك إنّهما سيرضيان؟ الدنيا هكذا، الغني غني.. والفقير فقير.

ـ لا تقل هذا يا عبد الله.

ـ أنا أقول الواقع والحقيقة.

تأفّفتْ قبل أن تنطق:

ـ لا تفسد علينا اللحظة بكلامك المزعج.

أسفتُ، أدركت بأنّني أثرت حزنها، وأطفأت بريق فرحتها، واسيتها لعلّي أمحو ما أثرته:

ـ لا تزعلي يا وسميّة.. أنا أحلامي كبيرة.

ـ كثير من الأحلام تتحقّق.

ـ لكن حبّي لك ليس حلمًا، إنّه حقيقة أتمنّى أن يتحقّق لها الحلم.

رفعت رأسها إلى السماء كأنّها تريد أن تسلّم الدعاء إلى القمر والنجوم، ثم انحدرت بنظرتها إلى البحر لتزرع في قلبه الأمنية حتى

تكبر. . وتكبر ثم تولد حقيقة تسعدني وتسعدها.

ألصقنا رأسينا على الصخرة، لا شيء ينغّص سعادتنا. لا هدير البحر، ولا وشوشة الموج، ولا مداعبات الرمل تحت أقدامنا، كلّ شيء يخجل أن يخترق لحظتنا ويصوّب نظرته المتطفّلة في وجهها.

كان الفرح كبيرًا. . وسميّة معي وأنا معها، والليل يركع للقاء المحبّين.

غيّبتنا الفرحة، وهمسنا العذب البريء، نسينا الوقت، تجاهلنا الزمن، وألغينا من فكرنا عيون العسس والحرّاس، حرّاس البحر، حرّاس الليل، والعيون الكاشفة.

فجأة!

جاء الضوء واهنًا من البعيد، ارتعشتْ، التصقت بي كأرنبة تخشى السكّين. همستْ لكنّ الهمسة أشبه بالصرخة:

ـ عبد الله!

التصقتْ أكثر. . أحسستُ برعدة جسدها، وانتقل ذعرها إليّ. توتّرتْ أعضائي، أصابني الشلل، ولولا أنّني تذكّرت المصيبة التي ستحلّ بنا لما انتصرتُ على شللي. يجب أن أتحرّك. . أن أحميها. . فالشرّ قادم، له عيون، له أسياخ من النار ستحرقنا إن لم نعجّل.

ـ هيّا. . .

شددتها من يدها بعنف ما تمنّيت أن أفعله، لكنّ الضوء الواهن المقترب منّا أرعبنا، فمُ غول يريد التهامنا ثم يبصق خبر الحدث

الرهيب وتنتشر الرائحة وتحدث الفضيحة.

ـ هيّا... هيّا..

بكلّ الرعب المنتشر في عمقها تساءلتْ:

ـ أين؟ أين؟

أين...؟

لم يخطر ببالي أين.. ولم يكن أمامنا من مكان سوى الصخرة، فهل أنا قادر أن أرفعها وأخفي وسميّة تحتها؟

أين...؟

سؤالها معقول لكنّه مُحيّر، والوقت أضيق من خرم إبرة، والخوف زلزال يعصف بأعطافنا فنهتزّ حتى لنكاد نتساقط فتاتًا إلى الأرض.

أين...؟

البحر أمامنا.. وحده البحر مخبأ للأسماك، والودع، والأسرار.

أين...؟

والرعشة.. والرعب.. والضوء.. وصوت وسميّة المرتجفة ينقذني:

ـ سأغطس في الماء حتى يذهبوا.

هلع قلبي:

ـ ولكن...

انفلتت من يدي:

ـ لا وقت لدينا، إنّهم يقتربون.

ـ بسْ يا وسميّة...

أردتُ أن أنبّهها، فهي لا تجيد السباحة. هي تحبّ البحر بالنظر، واللعب على شاطئه، وتحبّ رائحته التي كانت تشمّها في ثيابي.

صوتي يناديها لكنّها تسرّبت إلى البحر بخفّة. زفّت جسدها النحيل إليه وشعرها ثائر يموج على ظهرها وخطواتها أسرع من خطو أرنب.

الخوف سوط، تهرب من قسوته إلى مجهول يحمل ألفَ سوط.

حين غابت كان الضوء قد اقترب، دوريّة ليل تتفقّد المكان، تتجسّس على نضارة القلوب العاشقة، تكره نسمة الحبّ البريء.

ابتعدتُ عن المكان الذي اختبأت فيه وسميّة، انفردتُ بنفسي عند الصخرة، تحاملتُ على ارتعاشي وفزعي قبل أن أواجه الغول القادم. أردتُ أن أوهمهم بأنّني وحدي وبعد أن يغادروا أعود إليها بكلّ سرعتي لأصحبها إلى بيتها حمامة طاهرة.

هجعتُ عند الصخرة ولحظة انفلاتها من يدي لم تفارقني. كأنّ وريدًا من أوردةِ قلبي قد فارقني. وكانت بقبقة الماء الذي انغمست فيه تهزّني وتشقّ طبلة أذني: بق... بق... بق...

* * *

جاءني صوته وهو يقف أمامي ويركّز ضوءه الساطع في عينيّ:

ـ وحدك؟

تشعّب السؤال في أذني آلاف الأسئلة، ازداد ارتعاشي لكنّني تماسكت وخرج صوتي:

ـ نعم... وحدي.

وتطلّعتُ إلى البحر.. خشيتُ أن تبدو منه حركة، أو تتنفّس موجة وتفضح المستور، أيقظني بسؤال آخر:

ـ ماذا تفعل هنا في مثل هذه الساعة؟

لم أردّ.. بقيتُ جالسًا أبحلق فيه فصرخ:

ـ قُمْ يا (حمار) وردّ على سؤالي.

لم أردّ.. لم أكن قد استوعبتُ السؤال فقد خوّض في رأسي دون ترتيب.

أعاد سؤاله بهياج وإصرار:

ـ قُلْ.. ماذا تفعل هنا؟

شددتُ أعصاب قدميّ خائفًا أن تخونانني وقلت:

ـ أصابني الأرق فقلت أتمشّى.

ـ بيتكم قريب من هنا؟

ـ نعم، قريب.

وحدك؟

جاء سؤاله كالتهديد وفجع صوتي لكنّني أخرجته عنوةً:

ـ إيه.. وحدي.

تجوّلتْ عيناه في الأرجاء.. كأنّ للحظة الحبّ عبيرًا يفوح، كأنّه لم يصدّقني بل يُصدّق ما شمّه أنفه (الكلبيّ). أخذ يجول.. ويجول.. يبحث عن شيء ما يجعله يكشف السرّ وينتصر.

والسرّ هناك.. محروسٌ يرتعد تحت الموج، ولا أدري هل يرحم الرعدة فلا يصدر صوتها، ولا همسها، ولا حتى نفسًا من أنفاسها.

تنحنح الرجل، خطا خطوتين، ثلاثًا، ما كدت أتنفّس الصعداء حتى التفت ثانية وأمرني:

ـ روح بيتكم.

ـ إن شالله.

حذّرني:

ـ مرّة ثانية لا تخرج في مثل هذا الوقت.

ـ أمرك سيّدي.

سحب نفسه وابتعد.

هو يتحرّك هناك.. وأنا في مكاني لا يحملني جسدي. وما إن اختفى الضوء حتى ركضت إلى البحر كالرّيح.

* * *

ـ ١٠ ـ

هل حقًّا حملتني قدماي؟

هل كنت في تلك اللحظة أملك السيطرة عليهما لتطيرا بجناحَيْ صقر لينقذ وليفته؟

أسرعتُ بكلّ قواي التي امتلكتها في لحظة الرعب إلى البحر. إلى حيث حرست وسميّة جسدها وأنفاسها في طيّاته فصار فراشًا لها تحرس فيه حبّنا وتحفظ سرّنا وسمعتنا.

كنت أطير فوق الماء.. أخشى أن أدوس على موجةٍ قد تكون لحافَ وسميّة الذي تدثّرت به عن العيون.

الأسئلة تتخابط في رأسي:

أين تكون؟

وكيف هي حالتها؟

هل ستقفز وترفع إليّ ذراعيها الناعمتين لتمسك بي فرحة بخلاصها؟

أم ستبقى خائفة أن يُطلّ رأسها وتراها العين الغريبة؟

أين تكون حبيبتي؟

هل تحت هذه الموجة القريبة! أو تلك البعيدة! أو ربّما خلف صخرة!

أيّتها الأمواج تفوّهي بكلمة. . .

أصدري همسة أو نفسًا من أنفاسها. . .

زعزعي زَبَدَكِ. . .

أشيري. . . قولي. . هنا الحبيبة. . هنا تغمض عينيها الرائعتين وتنتظرك لتفتحهما على صورة وجهك. . . وهي ساكنة بانتظار ذراعيك تحملانها إلى حيث الرمل ينتظر، والقمر، والنسمة، والحياة.

كلّ أعطافي تنتظر بشوق وخوف لرؤية وسميّة.

خوّضتُ في الماء حتى نصفي. صرتُ أضرب وجه البحر وأصرخ: وسميّة. . . وسميّة. . . وس. . . .

خرج صوتي من حنجرتي المرعوبة مترنّحًا يضيع في الفراغ. . انحنيت. . تحسّستُ الماء وكأنّني أتحسّس وجه مئات الأزهار لأجد زهرتي.

صرختُ ثانية. . وثالثة. . وألفًا. . . وقدماي تصارعان وجه الموجات. غطستُ، حفرتُ الرمل. . صفعتُ الصخور.

ولكن لا أثر لها!

هل تُمازحتي لتثير قلقي؟ هل تتدلّل عليّ؟

ـ وسميّة.. أرجوك اخرجي، لقد راحوا.

لم تردّ..

حتى بقبقة الماء لم تُشِر لمكانها. اندفعتُ بقوّة أكبر.. لطمتُ الماء بعنف.. غطستُ وارتفعت... غطستُ أكثر وارتفعت.. شربتُ الماء المالح.. ناديتُ وصرختُ ولا من مجيب!

الظلمة من حولي.. الظلمة في عينيّ.. الظلمة في قلبي.. الظلمة حتى في زبَد البحر الأبيض الذي يلتمع بين لحظة وأخرى تحت ضوء القمر.

لمحتها...

عباءتها تطفو.. يتلاعب بها الموج.. يشدّها.. يفردها.. يقسو عليها يكاد أن يمزّقها. أسرعتُ إليها، خطفتها، شددتها إليّ وقد حسبتُ أنّها وسميّة تخرج من بحرها وتأتي.. تخرج من خوفها وتأتي.. لكنّ العباءة جاءت وحدها بدون وسميّة و...

صرختُ:

وسميّة... وسميّة...

أدقّق في الأنحاء القريبة. من هنا جاءت العباءة.. من هنا ستخرج وسميّة التي ما تزال تدفن جسدها خوفًا وتنتظرني لأخرجها.

غطستُ في المكان الذي جاءت العباءة منه و...

وجدتها . .

يا لسعادتي . . .

رفعتها على ذراعيّ المتعبين وقطعت بها المسافة من الماء ووسّدتها الرمل وبدأتُ أربّتُ على وجنتيها هاتفًا باسمها وراجيًا :

ـ هيّا يا وسميّة . . أفيقي . . لقد راحوا .

لم تردّ . . ولا أنفاسها همست مجرّد همسة .

ـ وسميّة . . تحرّكي لنمضي قبل أن يعودوا .

لم تردّ . .

هززتها بقوّة ولم تردّ . . .

لم تتحرّك . .

لم تفتح عينيها ، لم تتأوّه . .

لم تصدر عنها حتى تنهيدة أو شهقة .

ألصقتها بضلوعي وأنا كالمجنون ، لا أصدّق ولا أحتمل أن أصدّق .

عدتُ أهزّها . . أقرصها . . أصفع خدّيها . .

لكنّها أبتْ أن تستجيب ، ولا شيء على وجهها سوى صورة الرعب ترسم أثرها وكأنّها انتفاضة روحها .

هل حاولتْ أن ترفع رأسها لتلتقط نسمة من الهواء تساعدها على الاستمرار في الاختباء؟

هل خانتها النسمة فانتهت قبل أن ينتهي الرجل من أسئلته وشكوكه؟

ها هو البحر الذي نعشقه وزففنا إليه روحينا ليهدينا لحظة عمر حلوة، ها هو يخوننا هو أيضًا ويأخذ وسميّة.

* * *

العالم كلّه يغفو. . . كلّه متآزر مع غفوتها، لا ندائي يصل إليها ولا زعيق طبول قلبي المتوحّشة توقظها وتحيي في قلبها عرقًا ينبض.

وسميّة لم تسمع صوتي، ولم تر الرعب الذي انتشر على وجهي، ولم يحسّ ذراعاها الهامدان بلهفة ذراعيّ.

رحلت. . . وتركتني في قيعان الشجن والندم وحدي. وسّدتها ذراعي وأنا راكع أصلّي وأتوسّل وأبلّلها بدموعي. لم يبلّلها البحر (الكلب) كما بلّلتها دموعي.

حقدتُ عليه وموجه يبدأ رحلة المدّ ويتدافع نحوي، يصل إليّ وأنا أحضن وسميّة ثم يهرب كأنّه يخشى أن أقتله. صرخت في وجهه. . لعنته:

(يا ابن الكلب، يا ابن العاهرة. أنت خائن وأنا أكرهك. . أكرهك. . فقد قتلت حبيبتي التي أحبّتكَ وأحبّتني. لماذا قتلتها أيّها القاسي الحقير؟).

هي ذي بين يديّ ذائبة بلا روح.

عانقتها...

عانقتها... كثيرًا..

عناقًا ربَأتُ بنفسي أن يحدث وهي حيّة تجلس بقربي وتسكن كفّها داخل كفّي. كنت أشمّ في ارتعاشته شوقًا للعناق لكنّني لم أجرؤ. لم أحضنها، لم أقبّلها، كنّا بعدُ طفلين بريئين جئنا لنفرح ونلعب على الرمل.

هي الآن ودّعت الحياة. وأريد أن أودّعها.

لثمتُ شعرها المتهاوي على ذراعي يتقاطر دمعه وماؤه.

لثمتُ جبينها البارد وأنفها الشامخ حتى في لحظة الموت.

لثمتُ خدّيها الأملسين وثغرها المُملّح بماء البحر والذي يشبه ثغر أمّها الطيّبة.

* * *

التفتّ إلى البحر ثائرًا:

أيّها البحر اللعين كم أكرهك.. لقد استكثرتَ عليها السعادة.. خطفتَ نضارة وجهها ومزّقتَ غلالة شبابها التي جاءتك بها زاخرة بالتوهّج والنضوج. كنتَ لها الدنيا التي أحبّتها.. فهل تكون لها القبر الذي يواريها ويحميها من شرّ الفضيحة؟

ستواريها وحدك.. تحت موجك، وسط رملك وقواقعك، لا أريد أن تشرق الشمس وتلسع جسدها الأسمر، وتشير إليها بأصابع

الفجور وتصرخ: (هذه هي ابنة الحسب والنسب، كانت البارحة في وصلة عشق مع رجل فقير).

ليست وحدها أصابع الشمس...

هناك عينا الرجل الذي رآني في المكان. وحين يعلن النهار عن الفضيحة سيذكر أنّه رآني عند الصخرة، وأنّني كذبتُ عليه ونفيتُ وجود أحدٍ معي.

ستكون الفضيحة مضاعفة!...

يا للعار...

وسميّة خرجت مع رجل، والرجل ابن مريوم الدلّالة.

يا للعار!!

ويا لألسنة الناس اللّاهبة جمرًا تحرق جسدها الميّتْ.

يا للعار!

ابنة البيت المُحافظ تنتهز فرصة سفر أبيها وأخيها ونوم أمّها الآمنة وتخرج لتقابل رجلاً! ويجدونها ميّتة على الرمل.

هل يُباحُ شرفها؟

هل يُباح دمها؟ وتَسْوَدّ وجوه أهلها الطيّبين؟

لا...

لن تخرجي يا وسميّة من البحر.

سيستركِ.. سيحنو عليكِ رغم قساوته وسيكون مدفنك ومنفاك إلى الأبد.

حملتها . .

وقفتُ بها وجسدها الصغير يتهدّل كوسادة طريّة أفرَغَتْ كلّ أحشائها وأحلامها في ليلة صاخبة.

دموعي تسدّ نوافذ عينيّ، لكن طريق البحر كلّه مفتوح أمامي.

مشيتُ إليه، لا أحسب الخطوة ولا الزمن حتى وصل الماء إلى عنقي.

دفنتُ رأسي في صدرها وبكيت. . .

اعتذرت لها وبكيت. .

ودّعتها وبكيت. .

أسقطتها في الماء بحنان كبير، صلّيت عليها بقلبي وبكيت. .

خرجتُ إلى الرمل. .

ألقيت بجسدي المُنهكِ عليه يُثقلُني همّي وحزني وذنبي الذي لم أقترفه عامدًا.

نظرتُ إلى البحر، ورغم حقدي عليه توسّلته:

يا بحر. .

أودعتُ في قاعك حبيبتي فكن رحومًا بها. . ستورًا عليها.

يا بحر. .

ها قد أعطيتك أمانة. . فصُنها، لا تفضحها. . ولا تلفظ جسدها إلى الشاطئ. يا بحر. . وشوشها دائمًا وذكّرها أنّني أحبّها ولن أنساها أبدًا.

يا بحر. . .

لن أهجرك. . لا أستطيع. . فأنت قبر حبيبتي. أعدك ألّا أهجرها وأهجرك، سأصير صيّادًا أصطاد الأسماك وأرى في وجه كلّ سمكة وجهها، وفي عين كلّ ميدة عينيها.

يا بحر. . .

جئناك مشتاقين حاملين أملنا. كانت وسميّة تريد بيتًا، وتزرع فيه شجرة وأطفالاً، فزرعتها في قلبك محارة لا نبض فيها.

أيّها البحر. . .

سأحبّك رغم كرهي لك. . . وسأصفح عنك رغم غضبي منك. . لا لأجلك بل لأجل وسميّة التي في عمقك وستبقى في عمقي.

* * *

قلبي يضرب. . .

ضربات خوف وحرقة وهلع.

جسدي لا يحمل هلعي. . ولا يحتمل ثقل مأساتي فأظلّ منطرحًا على الرمل، لا أجرؤ أن أصرخ لأفرغ همّي الكبير.

ماذا أفعل؟

كيف سأتصرّف؟

وما الذي سيحدث في الغد؟

صرتُ أتخيّل المشهد.

ستصحو أمّها. . تتحسّس الفراش قربها ولن تجدها، ستناديها مرّة. . . مرّتين. . . وحين لا يأتيها الردّ سترفع صوتها بالنداء، لكنّه سيتبخّر في الفراغ اللعين، عندها ستنفلت من فراشها حافية وتبحث عنها في كلّ الأحواش وحتى في حظيرة الدواجن و. . .

لن تجدها . . .

ماذا ستفعل في تلك اللحظة المرعبة؟

هل ستخرج إلى الشارع كالمجنونة ورأسها حاسرٌ تصرخ وتعلن فزعها على الملأ وتتوسّل:

(يا الأجواد ابنتي ليست في البيت).

أمّ ستخرج لتبحث عنها دون أن تثير الخبر، فإن وجدتها انتهى الأمر وإن لم تجدها . . .

آآه ماذا ستفعل أمّ وسميّة!

هل ستحتمل الفاجعة أم يتوقّف قلبها؟

تناوبتْ عليّ الرعدات باردة وساخنة، وكان لا بدّ أن أتحرّك وأهرب من مكان الموت.

الحياة من حولي سوداء، ووجهي اتّشح بسوادٍ أغبر له رائحة كريهة، رائحة الإحساس بجريمتي، ورائحة الألم لفراق حبيبتي، ورائحة بحر فاسدة لم يستطع عطر وسميّة أن يزيله.

ركضتُ هاربًا من كلّ شيء. . أحمل جروحي وحزني، فررتُ كأنّ أيديًا تطاردني بالسكاكين والهراوات.

كنت أهرب. . أهرب ولا أدري إن كانت قدماي تحطّان على الأرض أم تحطّان على الهواء! أردتُ أن أصل إلى البيت.

كنت أحضن عباءتها التي تنزف دمها وماءها وأحلام صباها.

كنت أدسّها تحت إبطي وأحرص عليها كي لا تقع منّي فهي التذكار الوحيد الذي بقي لي من رائحة وسميّة.

كنت أخشى أن يلمحني أحد.. أن يلمح في عينيّ وجه وسميّة فيشير إليّ، ويستيقظ الليل وتنكشف الحكاية.

الطرق تصفعني بخوائها وصمتها، تزيد من وحشتي وإحساسي بأنّني أنا الذي قدّمتها ضحيّة للبحر فيزيد هذا الإحساس من ارتعاشي وتتساقط قطرات الماء منّي لتبتلعها الأتربة.

تركت وسميّة وحيدة..

كيف طاوعني قلبي؟

هل كنت جبانًا؟ أم كنت شجاعًا وأنا أواريها لأحميها من الفضيحة؟

لا... بل كنت جبانًا.

كان يجب أن أدفن نفسي معها وأموت، فقد نتلاقى ونحقّق في الموت سعادتنا التي يرفضها واقعٌ مرير ومجتمعٌ متعصّب.

وصلتُ إلى البيت...

لا أدري كيف وصلت.. ألقيتُ بجسدي المبلّل بالماء والرائحة في الزاوية قرب النافذة. نظرتُ إلى وجه أمّي لأطمئنّ أنّها حيّة لم تقتلها أحلامٌ رأتني فيها وأنا أدفن وسميّة.

لم أستطع أن أسكت دويّ قلبي ولا ارتجافات جسدي، كانت

ضلوعي تصافق بعضها البعض. خشيتُ أن تصحو أمّي وتسألني عن سرّ ارتجافي وبللي، فماذا سأقول؟

كان لا بدّ أن أُخرس هذا الغليان وإلّا!

* * *

من يستطيع أن يخمد لحظة هياج الفزع؟

من ذا يقدر أن يواري خوفه؟ إنّ مواراة الخوف أصعب من مواراة جسد ميّت في التراب.

جسدي ينتفض.. أسناني تصطكّ، أنفاسي، لهاثي، وغمغمة هذيان تخرج من حلقي ولا أستطيع التغلّب عليها.

أمّي نومها خفيف.. وعادتها أن تصحو مبكرة تبحث عن رزقها الحلال لأجلي.

تحركتْ.. تقلّبتْ.. مدّت ذراعها تتحسّس فراشي الذي يُلاصق فراشها، حاستْ بكفّها في جنباته فلم تجدني. رفعتْ رأسها، واستعرضتْ أرجاء الغرفة قبل أن تحطّ قرب النافذة حيث يتهاوى جسدي ويصطخب هذياني.

جاء صوتها مُستغربًا:

ـ عبد الله؟!

انبلع صوتي... وصوتها يعلو:

ـ عبد الله؟!

حين لم أجب جاءت إليّ، جلست بقربي تفوح رائحة نومها وهدوئها، هل أحسد هدوءها أم أحضنها لأستمدّ منها بعضه؟

اقتربتْ منّي أكثر.. تحسّستني، وجدتني مُبلّلاً، مُرتعشًا، هبط الجزعُ على وجهها وفي رنّةِ صوتها:

ـ ما بك يا عبد الله؟!

لم أنطق..

نظرتُ إلى وجهها الذي تنعكس عليه ظلال النافذة، أردتُ أن أستجلب منها الطمأنينة. هفتْ نفسي إلى مخبأ الصدر الذي هدّلته الليالي وهرسته الأشجان. وددتُ لو يصير صدرها كهفًا يخنقني فأرتاح، أو بحرًا يبتلعني لأفرّ من عاري. ليس سوى صدر أمّي يحتوي عذابي، وليس سواها من يستطيع أن يفعل شيئًا لأجلي ولوسميّة.

ماذا سأقول لها؟

هل أجرؤ على الاعتراف بذنبي أم أسكت؟

لكنّني لا أقدر أن أخفي عنها أمرًا كهذا.

تأمّلتْ وجهي.. والخوف يبتلع حتى ضوء عينيها:

ـ عبد الله.. ما الحكاية؟ لماذا أنت مبلول؟ هل أنت مريض؟

ارتميتُ عليها مخذولاً، بائسًا، مكسور القلب والخاطر، سحبتُ يدها الناشفة وتنشّقت تعبها ودفئها، رششتُ عليها قبلاتي،

وارتميت في حضنها وأنا أزأرُ بنشيجي وأصرخ:

ـ يُمّه.. يُمّه.. لو تدرين بالذي صار... أ...

قاطعتني هلعة:

ـ قول.. أشصاير؟ وليش ترتعد مثل السعفة؟ تكلّم.

احتجتُ لألف شجاعة كي أنطق:

ـ أمّي.. أنا أخطأت.. وضيّعت الحبيبة.

ـ الحبيبة!

خبطتْ أمّي على وجهها.. هي تعرف أن لا حبيبة لي غير وسميّة، فكيف تتصوّر وتصدّق أنّني ضيّعتها؟

انهالت عليّ بأسئلتها المُضطربة:

ـ كيف؟ وين؟ ماذا فعلت؟ قُلْ.. تكلّم.

ارتميتُ عند قدميها.. قبّلتهما، كانت أظافرهما طويلة تفوح منهما رائحة تراب وعرق. كانتا خشنتين كمنشار لكنّي احتملتهما تجرّحان وجهي وأنا أمطرهما بالدمع والندم.

ـ أمّي لا أقدر أن أقول لك. آآه.. لو تعرفين.

ـ أيّة مصيبة تخفيها عنّي وتريد أن تقتلني بها؟

ـ نعم مصيبة.. مصيبة كبيرة.

غادرها حنانها فجأة... هزّتني بعنف وعيناها تقدحان رعبًا وتبحثان عن المصيبة.

أشرتُ لها إلى العباءة المُكرمشة. سحبتها.. فردتها.. وبحثت عن شيء في رأس العباءة وصرخت غير مُصدّقة:

ـ يا إلٰهي! هذي عباءة وسميّة.

خرج صوتي:

ـ إيه.. عباءتها.

ألقيت بالكلمات كمن ارتاح من همّ كبير أفرغه إلى صدر يستطيع أن يحتمل ثقله.

سألتْ ودهشتها كالدمّل تكبر على وجهها:

ـ من أين جئت بها؟

أمّي لا تصدّق..

من حقّها ألّا تصدّق.. أيّ عقل يمكن أن يصدّق؟

ـ عبد الله.. ليش عباءة وسميّة معك؟

ـ يُمّه.. ما راح تصدّقين.

أمعنت النظر في وجهي ومن عينيها يطلّ شكّ واسع تحاول أن تسيطر عليه، لكنّه يكشّر عن أنيابه في نظرتها وصوتها المرتعد دهشة:

ـ وسميّة كانت هنا في هذا الليل؟

ـ لم تكن هنا. كنّا أنا وهي هناك.

ـ وين؟

ـ على البحر.

ـ يا مُثبّت العقل يا ربّ.. وسميّة تطلع معك أنت؟

أغاظني استصغار أمّي لي. ها هي التي تعرف كم أحبّ وسميّة تستكثر عليّ أن تكون معي. صرختُ بصوت مخنوق:

ـ نعم.. وسميّة بنت الحسب والنسب مع الفقير ابن مريوم الدلّالة.

أخذت أمّي تشدّ بشعرها وتلطم على خدّيها:

ـ وسميّة! لا شكّ أنّها جُنّتْ.

ثم انهالت عليّ:

ـ وأنت يا مجنون.. يا كلب.. كيف تشجّعها؟

خضّتني خضًّا فتّق كلّ أنحاء معدتي، فأفرغتُ منها حتى الخواء. فاحت رائحة القيء وابتعدت أمّي. جاءت بمنشفة وأخذت تمسح ذقني وصدري ودموعها تسيل خطوطًا من نار.

آآه.. ليتها تشُبّ في جسدي. أنا الذي سبّبت لها الألم والتعاسة.

سمعتُ شهقاتها التي تحاول أن تبتلعها وأنا أتوسّل إليها:

ـ أرجوك يا أمّي سامحيني.

كزّت على أسنانها، مدّت كفّها المُرتعشة وشدّتني من شعري شدًّا عنيفًا وهي تصبّ سعارها في وجهي:

ـ ماذا فعلت بالبنيّة؟ ضيّعت شرفها وجلبت لأهلها العار؟

ـ لا يا أمّي، أنا لم ألمسها. أحلف برأسكِ لم ألمسها.

ـ إذن ماذا فعلت؟ قلْ بسرعة؟

حذفتُ الكلمة من فمي راغبًا في التخلّص من السرّ:

ـ ماتت.

تهاوى كفّ أمّي المُمْسِك بشعري، سار على كتفي، ثم ذراعي لتغرز أظافرها بلحمي، لكنّها لم تكد حتى تهاوى جسدها النحيل إلى الأرض. مسكينة أمّي.. لقد سمعتُ عظامها تتكسّر عظمًا عظمًا.

تنوح أمّي نواحًا موصولاً يخترقه سؤالها المُتقطع:

ـ ما... مات.. ماتت؟!

ألقيتُ بآخر ما عندي:

ـ غرقت في البحر.

غرقت أمّي فجأة بصمتٍ حالك.

أين تراها غابت؟ هل أُغمي عليها؟ هل سكت نبض قلبها؟

لو كنت مكان أمّي لفارقتُ الحياة..

كيف لها أن تحتمل مصيبة كهذه وهي التي أكلت الأيّام من لحمها، وشاخ رأسها، وتقلّصت شرايين قلبها؟

أخذتُ أهزّها وأناديها لكنّها لا تنبس. كانت تعصف ودموعها

مدرارة. أسمع صوت قلبها ينطّ مهتاجًا. أمسك بها أحاول أن أحميها من لحظتها لكنّها بنفور تسحب نفسها منّي:

ـ ابعد عنّي.. لا تلمسني.

أردت أن أردّ الذنب عنّي:

ـ هي التي غطست في الماء وغرقت.

جاء صوتها محتدًّا:

ـ من الأساس، ليش أخذتها إلى البحر؟

لم تنتظر إجابة منّي، التفتت نحوي هائجة، أمسكت بوجهي تضربه وتضرب رأسي بحديد النافذة. شتمتني.. قالت كلامًا كثيرًا لا أذكره فقد عامت الأشياء أمام عينيّ. شعرت وكأنّي وسط دوّامة بحريّة تدور.. تدور وتسحبني إلى الأسفل فتنهش جسدي أسنان الأرض، وترفعني إلى أعلى فتضرب رماح السماء رأسي وتسقطني ثانية.

لا أدري كم مضى من الوقت وأنا تائه في دوّامتي. حين أفقت كانت أمّي تمسك بذراعي وترشّ الماء على وجهي وتهزّني:

ـ قمْ يا عبد الله، أنت بخير.

ـ أنا خائف.. ميّت من الخوف. هل كنت أحلم؟ هل أخبرتك بشيء؟

وجه أمّي الباكي يُنبئ أنّني قلت كلّ شيء. نطقتْ أمّي اسم وسميّة فتذكّرت العاصفة المجنونة، وعباءة وسميّة المكرمشة أمامي

تنعي صاحبتها.

ـ ماذا أفعل يا أمّي؟ ضاعت وسميّة.

فركت كفّيها تكاد أن تجرشهما:

ـ وسنضيع.. وتضيع سمعة الناس الأوادم.

التفتت إليّ حانقة:

ـ ليش يا عبد الله فعلت هذا؟

غضضتُ بصري:

ـ لا وقت للعتاب واللوم.. ماذا سنفعل؟

بقرار حاسم:

ـ لا بدّ أن أتصرّف. حسبيَ الله ونعم الوكيل.

قبل أن أرتاح رفعت رأسها نحوي:

ـ سأفعل كلّ ما بوسعي، ليس من أجلك.. فقد أجرمتَ مرّتين.. بل من أجل البنيّة وسمعة أهلها الطيّبين. لقد أكرمونا وها أنت تعضّ اليد التي أكرمتنا. تُغوي ابنتهم بالخروج معك ثم تقتلها...

قاطعتها:

ـ والله يا أمّي لم أقتلها، أنت تعرفين كم أحبّها.

ـ والذي يحبّ، ألا يحافظ على سمعة من يحبّها؟

دافعت عن نفسي:

ـ والله هي التي خافت واختبأت في الماء، وحين وجدتها كانت ميّتة.

مسحت أمّي على وجهها:

ـ لا حول ولا قوّة إلّا بالله.. حسرة على شبابك يا وسميّة..

ثم نظرت إليّ عاقدة الجبين:

ـ يا ليتكَ أنتَ الذي مُتّ يا عبيد.

استغفرتْ وأكملت:

ـ كان الله في عون أبوها وأخوها، وربّنا يصبّر قلب أمّها المسكينة. والتفتت إليّ:

ـ حسبيَ الله عليك وعلى إبليسك.

ـ ألحين.. ماذا سنفعل؟

ـ الشكوى لله.. لازم أتدبّر الأمر.

بلهفة سألتها:

ـ ماذا ستفعلين؟

زجرتني:

ـ شيء ما يخصّك.. خلّيك بعذاب ربّك وقلبك. نام واحلم.

وحقنت نظرتها في وجهي:

ـ هذا إذا قدرتَ أن تنام. اللي مثلك يعافه النوم والراحة.

ـ أرجوك يا أمّ. . .

ـ أسكت. . خلّيني أفكّر بحلّ لهذه المصيبة التي جلبتها لنا وللناس.

غرستْ أمّي نبتة صغيرة داخل قلبي. فهي التي لا يعصي عليها التدبير، وحبّها لوسميّة وأهلها ولي، رغم غضبها منّي، سيجعلها تفعل شيئًا يحميني ويحمي أهل وسميّة من الفضيحة.

ترى. . .

كيف ستتصرّف أمّي؟

* * *

ـ ١١ ـ

الفجر يتنفّس. . .

المساجد تطلق الأذان. . .

أصوات المؤذّنين تنساب إلى قلبي وتدفع إليه الأمان وألف شيء من محبّة ربّي. أردّد بخشوع مع الصوت:

(الله أكبر. . الله أكبر).

دموعي تسيل ودعائي:

(يا ربّ ارحمها).

أثق أنّ الله يحبّ وسميّة وسيستر عليها، وأمّي تحبّ وسميّة وستبذل لأجل أن تحميها كلّ ما بوسعها، البارحة وعدتْ وهي لا تخلف بالوعد.

رأيتها تتحرّك. .

مشيتها ثقيلة. . متهاوية وكأنّها للتوّ فقدت أبي، فقدتني، فقدت كلّ حياتها. سحبتْ سجّادتها. . صلّتْ، أطالت في الدعاء،

كانت هادئة، لا بدّ أنّها استقرّت على قرار منحها الراحة طوال الليل رغم أنّها مثلي لم يغمض لها جفن. صوتها واهن ووجهها يستدير ناحية اليمين واليسار:

(السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته). رأتني ما زلت قابعًا في مكاني فأمرتني:

ـ قُمْ.. صلِّ، واستغفر ربّك، واطلب لها الرحمة.

توضّأتُ، وصلّيتُ، ودعوتْ:

(يا ربّ ارحمها.. احفظها ولا تخرجها من بحرها، يا ربّ امنحها حنانك واغفر لها لأنّها أحبّت. نصيبها أن تموت، ونصيبي أن أحرم منها إلى الأبد).

حين أنهيتُ صلاتي جاءني صوت أمّي:

ـ سأذهب الآن إلى بيت وسميّة.

ـ لم تشرق الشمس بعد.

ـ لا بدّ أن أذهب قبل أن يصحو الناس وتصير الفضيحة.

ـ كيف ستتصرّفين؟

لطمني ردّها:

ـ لا تسأل.. ما لك شغل بتصرّفي.

ارتدتْ عباءتها على عجل، لاحظتُ أنّ بطانتها إلى الخارج، أمّي لبست عباءتها مقلوبة.

مسكينة!.. لقد قلبتُ بفعلتي كلّ كيانها، وجعلتها كعصفورة تحطّمَ عُشّها وسقطتْ منه فراخها.

مشتْ إلى آخر الغرفة وانتشلت بعصبيّة بعض ملابسنا المُتّسخة، فردت بقشتها المُرقّعة ودسّت فيها الملابس، قامت واتّجهت صوبي:

ـ هاتها بسرعة.

لمحَت استغرابي فأوضحتْ:

ـ عباءة وسميّة.

كانت العباءة في حضني طول الليل، جفّ ماؤها، وتكرمشت أكثر، سلّمتها لأمّي، وحين شدّتها أحسست أنّها تخلع قلبي من داخل صدري. وضعتها مع ملابسنا وربطت عنق البقشة وهي تهمس بصوتٍ باكٍ:

ـ رحم الله شبابك يا بنت الأجاويد يا غالية.

بكيتُ..

أخفضتُ رأسي بين ركبتيّ وبكيتُ..

بكيت لأنّ وسميّة التي كانت معي البارحة كالغزالة صارت اليوم مرحومة وسينعيها الناس.

بكيتُ لأنّني جلبتُ لأمّي همًّا كبيرًا كانت في غنًى عنه، وكان يكفيها شقاء عمرها الطويل الذي عاشته منذ أن توفّى الله أبي ومات الفرح في قلبها وشابت أحلامها.

كان بي فضول يُهيّجني.. لكنّني غير قادر على السؤال، أهُمّ ثم أتردّد، أخشى أن أثيرها فتتصوّر أنّني غير واثق أنّها ستتصرّف بما يحمي وسميّة وأهلها، ويحميني ويحميها.

قبل أن تخرج ركّزت نظرتها في عينيّ وقالت:

ـ اسمع.. عندما تطلع الشمس الحقني هناك.

ـ على البحر؟

ـ لأ.. الله يلعن هالبحر اللّي ماخذ عقلك.

وأكملتْ:

ـ هناك عند بيت وسميّة.

ـ ليش؟ ماذا سأفعل؟

ـ لن تفعل شيئًا.. أنا التي سوف أفعل، سيكون الناس قد خرجوا وتجمّعوا وأنت ستكون واحدًا منهم.

حاولتُ أن أفهم ما الذي تنوي أن تفعله لكنّني فشلت وصوتها يتابع:

ـ إيّاك أن تأتي بحركة أو كلمة تدلّ على أنّك تعرف أيّ شيء، امضغ عذابك في داخلك واصمت.

قبل أن أفتح فمي بأيّ استفسار كانت تخرج وتصفق الباب.

* * *

قابع في مكاني..

مشلول الحركة..

مهشّم القلب..

شارد البال..

مهزوم مثل سمكة انغرز الشصّ في حلقها.

لم تخرج أمّي في هذه الساعة المبكرة إلّا لتعجّل في تدبير الأمر قبل أن تصحو عيون الناس. لكنّ الوساوس والاضطرابات تتناوب عليّ، فرغم ثقتي أنّها ستدرأ الفضيحة، إلّا أنّني أخشى أن تعاكسها الظروف وتكون أمّ وسميّة قد صَحَتْ من نومها وبدأت بالصراخ وأيقظت الناس.

ظللت في مكاني أنتظر ويشقيني الانتظار، أحسّ كلّ شيء حولي يموت، أسمع صرخاتٍ تأتي من البعيد وتبتر صبري.. تهزّني.. تصرخ بي: (تحرّك.. لا تنتظر).

وكلّما هممتُ يجيئني صوت أمّي يجلدني ويحذّرني:

(لا تخرج قبل أن تطلع الشمس).

ظللتُ مصلوبًا في مكاني وكأنّ أحدًا دقّني بألف مسمار.

حين تهدّلتْ أوّل خصلة من خصلات الشمس، قفزت كالملدوغ وركضت إلى بيت وسميّة.

* * *

الصباح باهتٌ كوجه أرملة...

الخوف مُرابط في جسدي مثل عقرب ينثر سُمّهُ...

خُطاي تحفر ثقلها في التراب، والجرح يسكب دماء شراييني كلّها. والحزن...

الحزن الكبير الذي سأحمله العمر كلّه يعوي في داخلي...

الطريق إلى بيتها يعذّبني.. ينبوع من الشوق الرابض يتفجّر فأحسّه كالنار داخل عينيّ يكاد أن يعميني. لكنّ العين التي اعتادت طريق الحبّ لا تخطئه حتى وإن كانت عمياء.

كنت أجيء إلى بيتها طائرًا مبتهجًا..

واليوم...

أركض مهمومًا ثقيلاً.. حتى نشوة الذكرى المرصوصة في ذاكرتي تجافيني. أحسّ بوسميّة بين ضلوعي.. تغرق في دمي وتعاتبني فيزيد إحساسي بالندم.

صار الطريق إلى بيتها حقولَ شوكٍ تدمي قدميّ بعد أن كان زهورًا طريّة تعطّر حتى ما بين أصابعي.

أنا مجبرٌ الآن أن أتعكّز على عصا الفعل الذي ستحقّقه أمّي بذكائها وحسن تصرّفها.

* * *

تصوّرتني وحدي أركض إلى بيتها...

تصوّرت أنّني سبقتُ صحو النهار وصحو الناس. لكنّني حين دلفت الشارع فوجئت بجموع البشر.

كيف نبت هذا الجمع؟

أيّ هدير صاخب هزّ المضاجع وفتّق نعاس العيون؟

رجال.. نساء.. وأطفال حفاة مرشوشة أقدامهم بالتراب.

أصوات الرجال تخرج خاشعة:

(لا حول ولا قوّة إلّا بالله).

ـ ما الخبر؟

تساءلتُ وكأنّني أجهل الأمر والناس في شغل شاغل عنّي. شققتُ طريقي بين الجموع وكان الصوت يشقّ كبد السماء.

صوت أمّي...

واقفة هناك بين الجموع وقد سقطت عباءتها وبان شعر رأسها المُعفّر بالشيب وبالتراب. تمسك بعباءة وسميّة وتلوّح بها أمام الناس.

صوتها الذبيح ينوح:

ـ راحت البنيّة.. زينة البنات.

والجموع تتلقّف الكلام وتتساءل:

ـ كيف يا أمّ عبد الله؟

تُوَلوِلُ أمّي وتشدّ بشعرها وهي تحكي:

ـ حنّينا البارحة شعرها، وفي الفجر أخذناها أنا وأمّها إلى البحر لنغسل شعرها، كان المدّ شديدًا فسحبها الموج.

رغم صراخ أمّي كنتُ أسمع أصوات النسوة متخالطة. بعضهنّ

يستفسرن من أمّي، وبعضهنّ يعزّين أمّ وسميّة بكلمات تسلخ عروق قلبي.

صوت أمّي يرتفع ويُلعْلع:

ـ والله وبالله، وما لكم عليّ حلفان.. لحقتُ بها في الماء حتى كدتُ أن أغرق، لكنّ البحر غدّار.. سحّار سحبها بلا رحمة.

ـ يا ويلي ويلاه عليك يا وسميّة.

أمّي إذن أعلنت الخبر..

لا...

بل هي أعلنت كذبتها الذكيّة التي حاكت خيوطها بمهارة وأقنعت بها الأمّ المكلومة بعد أن أخبرتها بالحقيقة.

كان لا بدّ لأمّ وسميّة أن ترضى بالكذبة لتحمي سمعة ابنتها، وتحمي نفسها من لوم زوجها حين يعود.

والناس...

صدّقوا الخبر. ومن ذا لا يصدّق؟

هل هناك من يشكّ بوسميّة؟ البنت المستورة التي لا تلمحها حتى الطيور الطايرة، حتى إنّ أمّها تأخذها في الفجر كي لا يراها أحد.

ومن ذا لا يصدّق أمّي...؟

هي التي يثق بها كلّ أهل البيوت التي تدخلها. فلم تكذب أبدًا.

لكنّها اليوم تكذب.. وتحلف.. وتأثم.. وأنا الذي تسبّب في إثمها.

(كان الله في عونك يا أمّي، وليغفر لي ولك).

اخترقتُ الجموع واقتربتُ من أمّي.

حضنتها.. ونظرتها الحمراء تصطدم بنظرتي المُمْتنّة لها. صوتها الجاهش يقول لي أشياء كثيرة دون أن تقول.

آآه يا أمّي..

لا يخونك ذكاؤك أبدًا. وأمّ وسميّة المفجوعة بفقد حشاشة قلبها يرضى بكذبتك ويؤكّدها للناس..

كانت تحميني أنا.. وتتستّر عليّ أنا.. وترحمني أنا.

أنا الذي بفعلتي لم أرحم ابنتها وفجعتُ قلبها.

سحبتُ أمّي من بين الجموع لكنّها أفلتت منّي واتّجهتْ إلى بيت وسميّة الذي يعجّ دهليزه بالنسوة والأطفال. أردتُ أن آخذها إلى بيتنا لترتاح لكنّ صوتها وصلني حادًّا:

ـ روح أنت. أنا سأبقى مع عمّتك أمّ وسميّة.

تركتها وسحبتُ خطوتي. مسحت بطرف غترتي عفار وجهي، دمعٌ ودمٌ وغبار. ابتعدتُ وفي قرارة نفسي أن أبتعد عن الحيّ الذي شهد حبّي وشهد نعيَ الحبيبة.

* * *

ـ ١٢ ـ

لن أعود إلى البيت.

قال يحدّث نفسه وهو في الطرّاد.

وحيدًا إلّا من شجونه، ينظر إلى البحر المدفونة شبكتة في أعماقه، الكرب الأحمر يتراقص على وجه الماء فيرقص قلبه أملاً أن تمتلئ بالخير.

في السماء نجمة وحيدة مستوحشة كأنّها في بيت هجره عشّاقه وأصحابه، وهو وحيد مثلها، والوحدة في قلبه كبرت منذ اللحظة التي ودّع فيها وسميّة ثم ودّع بيتها، لكنّ صورة البيت ظلّت موشومة في عينيه يحملها أينما ذهب. ذلك البيت الذي ارتبط به منذ الطفولة وحُرمَ منه شابًّا، ثم حُرمَ منه عاشقًا بعد أن فقد الحبيبة.

ها هو الليلة يتابع زمن وحدته.. يستعيد كلّ الذكريات والأحداث ويتذكّر كلّ الوجوه التي عشقها.

وجه أمّه التي شابت، وكذبت لأجل أن تحميه هو وحبيبته.

وجه أمّ وسميّة الطيّب التي كانت لا تُفرّق ولا تميّز بين الناس.

وجوه الأصحاب وهم يسهرون معه ويطلبون منه أن يغنّي.

وجه الحبيبة وسميّة في كلّ لحظاته منذ كانت طفلة تداعب أصابعها الخواتم الملوّنة، حتى صارت صبيّة تداعب النسمات جديلتيها وتنثر على وجهها ورود الخجل حتى لحظة موتها التي اختطفت بريقه.

ورغم حنان الوجوه التي أحبّها، تشقّ الوجوه الأخرى طريقها إليه، تلك التي لم يحبّها.

وجه فهد القاسي الذي كسر قدمه ذات يوم.

وجه زوجته التي تركها للتوّ بعد أن عيّرته ورفضته وشتمت حبيبه البحر، وهي تسأله بصوتها الجبّار متى سيعود.

همس في سرّه:

(اللعينة.. أعرفها ستنتظرني لتفرغ سُمّها في وجهي، لكنّني سأخيّب نواياها ولن أعود).

* * *

عيناه نجمتان تحدّقان إلى مكان الشبكة، وأحلامه يسابق واحدها الآخر كما تسابقت إليه الذكريات وعادت تلحّ عليه دعوات الأصدقاء:

(غنّ يا عبد الله).

تنحنح.. واهتزّت أوتار صوته.

أخذ يترنّم بأغنية كان نسيم الليل يرقص على لحنها وكلماتها.

هو ذا البحر الذي صار قبر الحبيبة. همسات أمواجه تنساب إلى أذنيه فيتصوّرها همسَ وسميّة يبعث له بالأشواق وحكايات السنين التي قضتها في قاع البحر منذ أن فارقت الحياة.

ينصت إلى الهمس.. يأنس به.. يحسّ أنّها تواسيه وتمسح الألم عن روحه وتهدهد دموع قلبه.

تردّد السؤال في أعماقه:

(هل تخرج وسمية؟

هل ما تزال سمكة تسبح وتحلم أن تودّع قبرها وتخرج إلى الحياة؟

وإن عادت! هل ستكون له أم ستظلّ وسميّة ابنة الحسب والنسب وهو ما يزال ابن مريوم الدلّالة؟

آآه يا وسميّة...

ليتك تعودين فأحملك إلى مكان بعيد. لن أخبر أهلك، ولا الناس، سأعيش معك بعيدًا عن الحصار إلى مجتمع يتبرّأ من كلّ الفروقات والتقاليد الظالمة ولكن..! آآه).

شقّت التنهيدة صمت نفسه، عرف أنّه يحلم أحلام يقظة تلهو

به وتخدعه، ويرسم آمالاً واهية الخيوط لا تنسج له حقيقة واحدة.

الموت نهاية...

الذي يموت أبدًا لن يعود، و...

وسميّة ماتت.

أحسّ بالنعاس يداعب أجفانه، طرده.. مرّة وعشرين مرّة، مدّ كفّه وملأها بماء البحر، رشّها على وجهه وتلذّذ بطعم الملوحة.

(آآه كم شربتْ منه وسميّة حتى جفّ الجوف منها).

ما يزال يغالب نعاسه، يأمل أن تزوره الليلة، أن تدخل شبكته فيصطادها كأجمل سمكة لم يخلق البحر مثلها.

لكنّ النعاس يلحّ عليه، والنسمة الرطبة تثير قشعريرة في أنحاء جسده، وهمسُ الموج يردّد حكايات أمّه التي كانت تنساب من ثغرها فينام عليها ثم يحلم، هي الآن تعود إليه بنغمات شجيّة تُساهم في تخدير عضلاته وارتخاء أجفانه.

لا فائدة... النعاس يغلبه، وهدوء المكان يلفّه بخدر لذيذ.

يستند إلى كتف الطرّاد ويُبقي رأسه معلّقًا وعيناه رغم نعاسهما تغازلان البحر، والليل الهائل محيط شاسع لا يصلح إلّا للنوم والأحلام، لكنّه يعاند النوم والأحلام ويعاند نفسه، إنّه لا يريد أن تغفو عيناه لحظة، فربّما تأتي وسميّة وتجده نائمًا فتشفق عليه ولا

توقظه وتحسب أنّه غير مشتاق لها أو نسيها، أو سكنت في قلبه عصفورة غيرها.

ربّما تغضب منه ولا تعود ثانية وهو الذي يأتي كلّ ليلة من أجلها، ومن أجل البحر الذي تسكن فيه.

يسكن في مكانه.. تهدأ نفسه.. جفناه يذبلان.. يذبلان.. والزبَدُ يتطاير عليهما لكنّ النعاس لا توقظه القطرات الباردة.

* * *

تحت سديم الليل كلّ شيء ينام. وشوشة الماء وحدها تتناغم مع أنفاسه، يهتزّ به الطرّاد اهتزازًا خفيفًا وكأنّه ذراع أمّ تحمله وتربّتُ عليه، لكنّه يحسّ بحركة غريبة...

يسمع أصواتًا حريريّة تنسدل من السماء، وأغصانًا تتراقص، فيفضّ نعاس عينيه.. يرى الأغصان تتصاعد إلى الأعلى وتلتقي بالأصوات وهي تتشكّل خيوطًا ناعمة، ذهبيّة وفضّيّة. تتعانق بشكل دوائر ومستطيلات، تتهادى أطرافها في الهواء ووهج الألوان يتناثر كحبّات عنبٍ ملوّن.

وجهه يسبح في ظلال الألوان.. يذوب اشتهاءً للغوص فيها، وصفحة الماء تتحرّك كأنّها وجه عذراء تستعدّ لليلة زفافها.

فجأة...

تنشقّ موجة...

تخرج من قلبها محارة فضّيّة، تطير وتهبط، ومع كلّ قفزة من قفزاتها المنسجمة مع أصداء الموسيقى، ينفتح طرفاها ببطء، تخرج

من الأطراف ألوان زاهية تضيء سواد الليل، تلتمع في الأفق، وعلى صفحة الماء الرقراق.. ترنّ أصواتٌ كأنّها تأتي من أعماق البحّارة اللّاهثين.

تلهث عيناه وراء الألوان، يتابع المحارة الرائعة وهي تنفتح رويدًا.. رويدًا حتى تنفلق، فيلمح ذراعين سمراوين تتثاءبان كأنّهما استراحتا دهرًا بانتظار لحظة الانطلاق بعد أن ضاقت بهما قيعان البحر.

ترتفع الذراعان إلى أعلى...

أعلى...

ويطلّ الرأس...

هل يصدّق؟...

ها هو وجهها..

جداول شعرها تتماوج بين الألوان وتتطاير مع النسمات ثم تحطّ على الكتفين.

ها هما عيناها الجميلتان الواسعتان تنبت منهما أعشاب الشوق والحبّ.

هل يصدّق؟..

كانت الرعشات تتصاعد من داخله كما تتصاعد الألوان فيتزايد نبض قلبه وتفرّ منه كلّ متاعب السنوات الماضية.

يمدّ ذراعيه..

يودّ لو يضمّ كلّ البحر بهما ويضغطه إلى صدره، وعلى وجهه تنفرش الاندهاشات والأسئلة:

هل حقًّا هو يرى وسميّة!..

هل حقًّا هي تأتي مطرًا يَسقي يباب أعوامه؟..

يُدقّق النظر.. ويستعيد لحظات الطفولة..

إنّها هي...

وسميّة...

يلمح شفتيها تنفرجان وتنغلقان، يحسّهما تنطقان باسمه:

(عبد الله... عبد الله).

تتوثّب في نفسه انفعالات الشوق فيهتف:

(وسميّة... وسميّة).

هي تتراقص أمامه على الماء، يسترها شعرها المنسدل وتشعّ ابتسامتها.

يمدّ ذراعيه أكثر..

يناديها بكلّ ما في روحه من توق:

(وسميّة.. تعالي.. اقتربي).

تتمايل أمامه...

يستحثّها:

(لا تتدلّلي.. انتظرتك سنوات طويلة عشتها وحيدًا في الحزن والشقاء).

تُسبل جفنيها خفرًا..

يدعوها:

(الليلة أنت لي يا وسميّة.. اهبطي لنقيم عرسنا).

تتماوج أصوات الموسيقى مع ضحكتها ومثل عزف العود تهطل إلى قلبه.

(تعالي يا وسميّة لنصنع عيدًا.. فأعياد هذا الزمان شحيحة).

لا تردّ..

تبتسم فقط.. والشفتان تهتفان باسمه، والألوان تشعّ فتخفي عينيها تارة، وشفتيها تارة أخرى.

تغطس في الماء ثم تخرج أكثر التماعًا وجمالاً.

يتماسك... والموج يعزف موسيقاه فيرقص الطرّاد وينتشي.

ذراعاه ممدودتان نحوها..

ينسلخ من غابات حزنه..

ينفض جسده... يضحك... يسمع ضحكته ترتجّ وتتفرّع..

يراها كالطيوف الهائمة ترفّ كأجنحة تعلّمت الطيران للتوّ، وتُسرع إلى حضن البقعة التي ترتاح في موجها الحبيبة.

صوته الهاتف من الأعماق:

(وسميّة يا حبيبتي..

ها أنت تأتين وأنا سجين الوحدة واليتم منذ أن ماتت أمّي..

اقتربي.. أنت الآن أمّي.. وحبيبتي.. وكلّ شيء).

تمدّ ذراعيها نحوه...

شفتاها تُشرقان بأحلى ابتسامة، يلمح أسنانها البيضاء تتساقط عليها ظلال الألوان، وعلى جسدها ترتسم الخطوط والمربّعات، جسد جنّيّة آتية من بلاد العجائب...

ملكة جمال البحر صارت وسميّة...

يناديها:

(وسميّة..

اقتربي..

لم أجد حبيبة غيرك...

زوجتي تكره رائحتي ورائحة البحر. وأنا أهرب منها كلّ ليلة إليك..

إلى بحرنا الذي أخذكِ أمانة وهو يردّك الآن إليّ..

هيّا اقتربي...).

يُدنيها الموج...

يفتح ذراعيه لتسقط بينهما.

ما يكاد حتى تأتي موجة وتدفعها إلى الوراء.

يحسّ بغصّة سرعان ما يبتلعها أمل جديد حين تدنيها الموجة التالية فيستعدّ لعناقها ويشجّعها:

(اقتربي يا وسميّة لا تخافي..

نحن في البحر، وهذا الليل أمين علينا، لا عيون ترى ولا آذان تسمع ولا أنوف تدسّ أطرافها في لحظتنا النادرة..

وحدي أنا يا وسميّة، إلّا من شبكتي ولهفتي..).

الموج يقرّبها... والشوق بانتظار أن يطفئ لهبه.

الموج يُبعدها...

واللهفة تجري وراء الموجة وهو يرجوها:

(هيّا يا حبيبتي..

لقد طال الغياب فلا تتدلّلي..

خلّصي قدميك من محارة الزمن الماضي وتعالي..

ارقصي فوق صدري..

تحرّري من الخوف..).

يهتزّ جسدها..

يتلألأ.. تولد منه الأعراس، والضحكات.

تُدني نفسها إليه، لكنّ الموجة تسحبها هي وألوانها وتنحسر بها أبعد ممّا كانت، وشفتاها تهتفان باسمه:

(عبد الله).

يُدرك أنّها مقيّدة في المحارة التي كانت تفغر فاها وتستعدّ لابتلاعها.

هلع قلبه..

هل يتركها ترحل بعد أن تحقّق حلمه البعيد؟

هل يبقى مربوطًا في مكانه بانتظار اقترابها الموهوم؟

عيناه الناعستان تُثقلان حركته.

جسده يهتزّ..

انتفض واقفًا..

شعر بترنّح جسده...

غالب ضعفه.. وأخذ يصرخ بأعلى صوته

(وسميّة..

وسميّة..

انتظريني..

سأخرجكِ من البحر..).

و...

يُسقطُ جسده في الماء.

* * *